
روايات مصرية للجيب
33
زولو
د. أحمد خالد توفيق
سافاري
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ـ كما يقول الغلاف ـ كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال إفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًا ، فقط وجد كثيراً من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك ـ كما قلنا ـ من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ ونفهم كل شىء ..

الليـلة الأولى

مرحبًا بكم ..

أنا (كوتانجا) الذى تعرفونه باسم (مزى) ..

ليس من بينكم إلا من يعرفنى ويحب قصصى ..

(مزى) .. الرجل العجوز الحكيم بلغة السواحلية ، الذى يملك زادًا لا ينفد من القصص .. من أجل هذه القصص تصبرون يومًا بأكمله على الفقر .. على السغب .. على القيظ .. على تقلبات السياسة ؛ لأنكم تعرفون يا أهل (مومباسا) أنه عندما يأتى المساء سيكون (مزى) جالسًا على جذع السنديانة المقطوع وهو يمضغ التبغ ويحكى ..

لا شىء يعادل قصص (مزى) العجوز ؛ لذا يحرص الرجال على أن يأتوا له بهدية ما .. قطعة من اللحم الطرى .. بعض الكاسافا .. كيس مفعم بالتبغ .. هناك من عرض على عروسًا صغيرة السن ، فضحكت كثيرًا حتى غلبنى السعال .. أنا قد تزوجت عشرين امرأة لكنى الآن قد تجاوزت المائة ، ولم يعد لى فى النساء مأرب إلا أنهن يطعمننى ..

لم تعد لدى أسنان إلا هذه .. وهذه .. لكنى أصنع بهما الأعاجيب .. وبهما أقضم فخذ الثور ..

فى وجهى يمكنك أن ترى قصصى كلها .. نعم .. ليس السرد بمهنة من لا مهنة له .. السرد سر .. فن فى حد ذاته .. نغمة صوتى تعلو وتهبط .. تتسع وتضيق .. عيناى تجحظان ثم تغوران .. أناملى تفعل ما يفعله أبطال القصة ..

يمكنك أن تشعر بالأسد (جابالجا) قادمًا من وراء هذه الأشجار .. يمكنك أن تسمع هسهسة خلخال الفاتنة (موجانا) وهى تتسلل فى الظلام لتلحق بحبيبها .. يمكنك أن تسمع فحيح الأفعى .. يمكنك أن ترى رقصة الماساى وهم يثبون فى الهواء مفرودى القامة حتى ليوشكوا على ملامسة القمر ..

سوف تعبث القصة برءوسكم ، ولسوف تسكرون من هذه الخمر الحلال .. حتى تصلوا لذروة النشوة فتلقوا رماحكم على الأرض وتصيحوا صيحة رجل واحد :

- « مزى !! »

عندها أهدأ قليلاً وآخذ جرعة أخرى من الماء .. لقد علمتنى السنون أن القصة الجيدة تقتل القصة الجيدة ..

يجب أن أنتظر حتى يزول مذاق القصة السابقة من أفواهكم قبل أن أحكى الأخرى ..

هذا الصغير ؟ إنه (مجودلوا) .. دعوه قريبًا منى .. إنه يصغى للحكايات كلها .. وسوف يحفظها جميعًا .. ويومًا ما سوف يقصها على أولادكم أو أحفادكم .. إن عظامى قد شاخت ولسوف ألحق بالأجداد قريبًا ؛ لهذا يصعب على أن يموت هذا التراث معى ..

منذ أشهر جاء هؤلاء الغربيون من القناة الجغرافية القومية ، وجلسوا يسجلون لى بعض حكاياتى .. ثم طلبوا من فتيات القرية أن يرقصن رقصات الموت والميلاد .. وقاموا بتسجيل هذا كله بالكاميرا .. نفس السبب الذى يدفعنى لتعليم هذا الصغير : الخوف من اندثار كل هذا التراث الرائع .. هل الحياة تتحسن ؟ لا أدرى .. لم يعد الأطفال يموتون بكثرة كما كان فى الماضى .. لكن الجوع لم يزل والفقر لم يزل .. فى الماضى كانت الحكايات أجمل والليالى أجمل والفتيات أجمل ..

كان لحكاياتى مذاق أجمل .. لا أنكر هذا .. كنت أحكى عن أبى السموات (أومفلينكانجى) .. أحكى عن

(أولاكانيانا) القزم و(إنتولو) السحلية الشبيهة بالإنسان .. و(تيكولوشى) الذى هو نصف إنسان .. له رجل واحدة وذراع واحدة .. لو هزمه إنسان لعلمه كل أسرار السحر .. لكن من المستحيل للأسف أن يحدث هذا ..

هل سمعتم أشياء كهذه من القبائل ؟ إننا اليوم نحكى عن (الزولو) فلا غرابة فى أن أسترجع بعض أساطير الزولو .. لكننى اليوم لن أحكى أساطير ..

والآن .. هل جئتم جميعًا ؟

هل أحضرتم لى السعوط والتبغ ؟ جميل .. جميل .. هناك عادة تعلمتها هى مضغ البن .. تعلمتها من رجل أبيض ووجدتها ممتعة .. فى الليلة القادمة هاتوا لى بعض البن .. هه ؟ لا تنسوا ذلك ..

فليجلس الأطفال على غصون هذه الشجرة القريبة ، ولتجلس النساء فى الدائرة الخارجية أما الرجال فهم أمامى متسعة عيونهم متقطعة أنفاسهم ..

إن (مزى) سيحكى لكم قصة أخرى ..

* * *

حكيت لكم فى المرة السابقة عن (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى من بلاد النيل .. هناك قوم عمالقة اسمهم (الفراعنة) ولديهم وحش نصفه أسد ونصفه امرأة يجول حول الأهرام التى دفن فيها الملوك العظام .. اسمه (أبو الهول) .. هذا الوحش يلتهم العذارى ؛ لذا يقدمون له فتاتين كل عام على سبيل القربان .. ألا تصدقوننى ؟ أنتم أحرار فى ذلك .. أنا لم أر مصر تلك ، ولن أراها لكنى أعرف كل شىء ..

(علاء عبد العظيم) ما زال فى (سافارى) بـ (الكاميرون) وما زالت زوجته الرقيقة اللطيفة (برنادت) معه .. رأيى الخاص أنهما متحابان .. صحيح أن الخلافات تأتى لكنهما يسمحان لها بالرحيل .. من البشر من يتمسك بالخلافات ويدعوها للبقاء ويقدم لها العشاء .. لكنهما أكثر حكمة أو أكثر سذاجة من أن يفعلا هذا ..

فى المرة السابقة حكيت لكم عن أن الزوجة كانت حاملاً .. لم تستطع الاحتفاظ بهذا الجنين وفقدته فى ظروف مؤسية ، ومنذ ذلك الحين لم يظفرا بطفل آخر .. إن خصوبة الرجل الأبيض تحيرنا نحن السود .. إن الأطفال يأتون دون إرادتنا

ودون أن نخطط لذلك ، وبأعداد تفوق الحصر .. أما هم فطفل أو طفلان .. هذا أقصى ما يمكن أن يحلموا به ..

إن (علاء) فى مأزق لأن إدارة (سافارى) طلبت منه أن يرحل على سبيل الإعارة إلى وحدة (سافارى) فى جنوب إفريقيا .. وهو لا يحب هذا .. لكنه بعدما مر بمغامرة الأبقار تلك وجد أنه مرغم على الرحيل .. فى الحقيقة هو لم يحب كثيرًا ذلك الجو الملبد بالغيوم من حوله .. إن (فرودندى) ليس بالخصم الهين .. وكراهيته تعنى أن تمشى وأنت تتلفت حولك فى قلق .. لكنه كذلك لم يرد أن يترك زوجته وحدها ..

الإدارة لا تسمح له بذلك .. لا يمكن اصطحاب (برنادت) .. نحن بحاجة إليها هنا .. هناك طريقة ممتازة لحل المشكلة هى أن تستقيل هى ، ثم تصحبها على نفقتك ! طريقة ممتازة أخرى هى أن تستقيلا معًا .. هناك حل عبقرى يتلخص فى أن تطلقها وتذهب وحدك .. فلن تقلق عليها بعد هذا ..

طبعًا كل هذه الحلول لم تبد عملية بالنسبة لـ (علاء) .. وكان غراب البين فى الموضوع هو (باركر) نائب المدير الذى جعل (علاء) يتمنى لو عادت أيام القتال ضد الإنجليز ..

كـان أول شـىء سيفعله هـو أن يضـع قنبلـة تحـت مقعـد (باركر) هذا فينفجر ، ويهتف (علاء) : تحيا مصر !

قالت له (برنادت) دامعة :

ـ « اذهب ولا تخش شيئًا .. سوف أبقى حية .. لقد برهنت عن أننى على ذلك قادرة ».

السبب فى دموعها أنها تحبه حقًا ، وأنها كانت تتمنى لو سافرت معه .. حتى اللحظة الأخيرة كانت تتوقع هذا .. لكن يبدو أن طب الأطفال متقدم فى جنوب إفريقيا فعلاً ..

وضع أنامله على شكل قمع تحت ذقنها ، وقال :

ـ « سوف تعودين للإقامة فى الوحـدة .. لا أريد أن تكونـى وحدك فى هذا البيت المفزع .. »

ـ « نعم .. نعم »

المشكلة معها هو أنه يتخيلها دومًا وقد بالغت فى جرأتها أو تحامقت .. هـذا يثيـر حفيظته حتى ليوشـك على تحطيم رأسها لو استطاع ..

ـ « لـو لاحظت أى شـىء مريب فلا تترددى فـى إبلاغ الشـ .. المدير .. هو سيتصرف »

قالت وهى تعتصر أرنبة أنفه مداعبة :

ـ « لا تكن طفلاً .. (فرودندى) هذا لن يقتلنى لأنك أفرغت الكولا فى وجهه »

ـ « أعرف .. لكنه يمكن أن يجعل حياتك جحيمًا .. »

هكذا استعد طبيبنا للسفر إلى وجهته الجديدة ..

وجهته التى يعرف أنه سيقضى فيها ستة أشهر على أقل تقدير ..

فى يوم ما منذ زمن قديم سافر طبيب عسكرى شاب ومشاغب إلى ذات الوجهة .. الطبيب كان بريطانيًا وكانت زوجته معـه .. كان اسمه (بروس Bruce)(*) وقد اكتشـف (التريبانوسوما) التى تسبب مرض النوم .. فماذا عن طبيبنا الشاب يا سادة ؟

بمناسبة النوم .. عيونكم قد احمرت وأعتقد أن الوقت قد حان .. غدًا نستكمل هذه القصة ..

(*) الهجاء الإنجليزى من عندى وليس من عند (مزى) .. فقط كى لا أخرق السياسة التى التزمت بها فى القصص ..

الليلة الثانية

مرحبًا بكم ..

هبطت الطائرة التى تقل (علاء) فى مطار (دربان Durban) .. إن المدينة تملك مطارًا دوليًا حديثًا .. والمدينة نفسها جميلة بحق .. كان يعتقد أنه لم يرَ أجمل من (نيروبى) ، لكن هذه البلدة فاقت تصوراته .. لم لا ؟ إنها مركز مهم .. بها مطار وتلتقى عندها خطوط حديدية عدة ..

هذا بالطبع لم يسهم كثيرًا فى تحسين مزاجه المتعكر ، ولا شعوره بأنه منفى فعلاً .. إنه الآن عند نهاية إفريقيا من ناحية الجنوب .. لو انزلقت قدمه لسقط فى المحيط الهندى ..

المهم كذلك أنه فى (الناتال) بالذات .. هذا هو مركز (الناتال Natal) و(الكوازولو KwaZulu) اللذين امتزجا منذ عام ١٩٩٤ ليصيرا شيئًا واحدًا .. هنا توقفت سفن

(فاسكو دا جاما) يومًا فى ليلة كريسماس فأطلق على المكان اسم (ناتال) .. ما العلاقة ؟ (ناتال) بالبرتغالية تعنى (كريسماس) .. حسبت هذا واضحًا .. لا تنسوا أننى (مزى) ، والـ (مزى) يعرف كل شىء ويستنتج الباقى ..

هنا كذلك جامعتان عتيقتان هما جامعة (الناتال) وجامعة (دربان) .. إن هذه المدينة كانت مرفأ صغيرًا ، ثم اكتشف الذهب عام ١٨٨٤ فتحولت إلى مدينة كبيرة .

هذا المكان على المرفأ هو ما يطلقون عليه (رصيف الحيتان) .. هل ترونه بعين الخيال ؟ هنا كانوا يلقون بالحيتان العملاقة التى اصطادوها كى يقوموا بتمزيقها .. يأخذون منها الزيت واللحم والسماد .. فى وقت من الأوقات كانوا يمزقون ٣٠٠٠ حوت سنويًا ، إلى أن حددت القوانين هذه العملية قبل أن تنقرض الحيتان .. أنتم لا تعرفون الحوت .. هذا طبيعى بالنسبة لكم .. لكن لا بد أن أخبركم بما أعرف ..

الجو غريب جدًا .. لو شئت الدقة لقلنا إنه بالضبط جو بلده مصر فى شهر يناير .. مزيج من الاعتدال والبرد الخفيف .. لا عجب ومدرس الجغرافيا قد قالها ألف مرة فى المدرسة الإعدادية : « مناخ جنوب إفريقيا وبالذات إقليم (الكيب) مناخ بحر أبيض متوسط » .. فإذا اعترضت لأن البحر المتوسط

بعيد جدًا ، تلقيت عصا على أطراف أصابعك وجررت من أذنك إلى مكتب الناظر ..

وحدة (سافارى) تقع خارج (دربان) ، وأنتم تعرفون أنها لا توجد فى المدن الكبرى أبدًا ؛ لأنها تعامل كمصدر محتمل للوباء .. فى (الكاميرون) تقع خارج (أنجاوانديرى) .. هنا تقع قرب (دربان) وهى وحدة متوسطة الحجم .. ليست مركزًا عملاقًا كالذى رأيناه فى (كينيا) ، ولا مركزًا كبيرًا كالذى فى (أنجاوانديرى) .. لكن ليس بوسعك أن تدعى أن الحياة هنا أعقد أو أصعب .. فى الواقع البلاد متقدمة جدًا ..

مدير الوحدة إفريقى يدعى (بالينجا بايلا) .. دكتورا فى أمراض العيون من جنوب إفريقيا .. من الصعب أن يرأس الوحدة طبيب غربى ؛ لأن الحساسية عالية جدًا هنا لأمور كهذه ..

كان أشيب الشعر له شارب أبيض كث مع بشرته السمراء الداكنة ، مما أعطاه تأثيرًا طريفًا كأنه ثمرة باذنجان ألصقوا عليها قطعًا من القطن الأبيض ، وكان أنيقًا يتكلم إنجليزية ممتازة ، وقد سره أن (علاء) يجيد الإنجليزية والفرنسية ..

صافحه وقال له :

- « مصرى ! يسرنى أن أستقبل إفريقيًا هنا .. أنا من (الزولو) ! »

نظر له (علاء) فى دهشة .. نظر لربطة عنقه وبذلته الأنيقة .. ويبدو أن أفكاره كانت عالية ، إلى حد أن الرجل سمعها فقال :

- « الزمن يتغير .. لو توقعت أن تجد رئيس الوحدة يلتف بجلد النمر ويرقص بالرمح ، فأنت مخطئ .. (الزولو) مجرد صفة عرقية ، لكن الصورة القديمة قد اختلفت بالتأكيد .. بالمناسبة لا يخفين عليك أنك فى معقل الزولو .. »

ثم أضاف وهو يمهر بعض أوراق بتوقيعه :

- « سوف تقابل هنا حشدًا من الجنسيات .. الهولنديين .. البريطانيين .. الآسيويين .. قبائل (البوشمن Bushmen) و(الهوتنتوت) .. لكنى أذكرك بشىء واحد : لا تثق بأحد .. الجريمة هنا تبلغ أعلى معدل لها فى العالم .. هناك ٢٣٠٠٠ حادث قتل وسطو وسرقة فى العام الماضى فقط ! »

أطلق (علاء) صفارة من فمه .. معنى هذا - لو كان صحيحًا - أن هؤلاء القوم مشغولون جدًا .. لو كانوا يصحون

صباحًا فيعكفون على السرقة والقتل بلا توقف حتى المســاء فلن يحققوا هذا الرقم .. إن المثـابرة تثير الإعجاب حقًّا .. أشياء كهذه تشعرك بالخجل من خمولك ..

ـ « السبب هو الفقر .. هنا طبقتان ، إحداهمـا فاحشـة الثراء والأخرى بالغة الفقـر .. بينمـا (الفلتـر) المدعـو بالطبقـة الوسطى لا وجود لـه تقريبًا .. أنـت تعـرف دور قضبان (الجرافيت) فـى المفـاعلات النوويـة .. إنهـا تحمـى المفاعل من السخونـة الزائـدة .. هنـا لا يوجد جرافيت ولا طبقة وسطى .. الخلاصة هى ألا تجول وحدك فى الشـوارع قرب المسـاء ولا تثق بمـن يعرض عليك خدماتـه .. هـل تتعاطى أقراص الوقاية من الملاريا ؟ وهل تعرف سبل الوقايـة من مرض النوم ؟ جميل .. جميل .. صالاداشى »

كان (علاء) ذكيًا فلم يتوقـف عنـد لفظـة (صالاداشـى) هذه إنما أضافها لقاموسه على الفور .. فمعناها حتمًا هو (فى حفظ الله) أو (وداعًا) بلغة الزولو ..

هكذا خرج (علاء) يتفقد الوحدة ..

ما أغرب العلاقات البشرية ! ها هـى ذى الوجوه من حولـه صناديق مغلقة .. لا يعرف عن أصحابها شيئًا .. إن هى إلا أيام

ويفتح الستار عن المحتوى الإنسانى الثرى لكل واحد .. هذا شرير .. هذا رائع .. هذا مختال .. ذات الشعور الذى يشعر بـه عندما كان يدخل فيلمًا سينمائيًا فى منتصفـه فـى إحدى دور السينما التى تعيد الأفلام .. يبدأ فـى رؤيـة وجوه لا يعرف عنها شيئًا وعلاقات يجهلها تمامًا .. ثم يرى الفيلم من جديد فيضع كل قطعة من اللغز فى مكانها .. هنـاك وجوه سوف يبكى لفراقها ووجوه سوف يرقص طربًا لوداعها ..

فقط دع الأيام تدور دورتها المعتادة ..

★ ★ ★

كان أول من قابله هى الدكتورة (هانا فان بيردن) نـائب المدير .. هذا نوع من التـوازن المحسوب بدقـة .. المدير من الزولو فلا بد أن تكون نائبته هولنديـة .. كـانت عجوزًا أو جعلها الإفراط فى الصرامة والتدخين كذلك .. ليست شـمطاء مـن طـراز (هيلجـا) الألمانيـة التـى كـانت تثـير رعبـه فـى (أنجـاواندیرى) ، لكنهـا تحمـل ذات الطـابع الصـارم الجاف .. هذه امرأة تم عصرها بعناية كالليمونة كى لا يبقى فيها شىء من رونق الأنوثة ..

صافحته بطريقة عملية ، ثم قالت له :

ـ « سوف تلاحظ هنا أن اللغتين الرسميتين هما الإنجليزية والهولندية .. ليست الهولندية بالضبط بل نسخة محرفة منها تدعى الـ (تال taal) .. بالطبع سوف تتعامل مع الكثير من الزولو ، لكن لدينا مترجمين لعدة لغات .. »

ثم نظرت فى أوراقها وقالت :

ـ « الزولو شرسون جدًا .. لا تتعامل معهم بأى شكل إلا ما هو طبى .. ثم ... » وواصلت تفقد الأوراق « ألاحظ من سيرتك الذاتية أنك نشيط جدًا وأنك مررت ببرامج لا بأس بها .. عمى الأنهار .. كالا آزار .. جميل .. جميل .. »

طبعًا لو عرفتْ كل ما مر بـه (علاء) لسقطت الأوراق من يدها .. حتى داء (ألزايمر) وجنون الأبقار مر بهما .. لكن هذه كانت مغامرات وهى لا تُدون فى السيرة الذاتية ..

قال لها (علاء) فى فخر :

ـ « عملت مع (إبراهيم مالك سامبا) .. »

قالت بذات اللهجة العملية :

ـ « آه .. إنه إدارى لا بأس به لكنه ليس عالمًا »

هكذا فهم (علاء) القصة بوضوح .. إنها مجرد مستعمر هولندى لم يتخلص من احتقار السود ، ومن الواضح أنها تدس السم فى كلماتها ليكون هذا درسه الأول .. (بوير Boer) .. هذا هو الاسم الذى يطلقونه على هؤلاء الهولنديين .. لقد تعامل (علاء) مع البانتو والكيكويو والفولانى والكاشا ولم يجدهم بهذا السوء .. حتى توركانا والماساى فى كينيا لم يتعامل معهما مباشرة لكنه مما سمعه عنهما لم يستطع أن يكرههما .. على الأرجح لن يكون التعامل مع الزولو صعبًا .. فقط هذه المرأة تريد ذلك .. دعك من أنها هولندية .. فى الغالب يحب الهولنديون إسرائيل لأسباب سنشرحها فيما بعد ، وفى الغالب من يحب إسرائيل لا يطق العرب ..

و(علاء) عربى ..

عربى جدًا لو شئت الدقة ..

كانت تمشى بسرعة فاضطر للركض كى يلحق بها ..

هذه المرأة مدخنة وتكبره سنًا بعشرين عامًا على الأقل ، لكنها قطعت أنفاسه حقًا وهو يحاول اللحاق بها .. كانت تتكلم بلا توقف بينما هو يحاول ألا يصاب بذبحة صدرية :

ـ « هنا تجد كارثـة اسمها (الإيدز) .. المرض يتفاقم وتكلفة علاجـه تتزايد .. لهذا سيكون هذا عملك الرئيس هنا .. حملات توعية .. مناظرة .. فحص .. علاج .. إلخ .. يجب أن تكتسب خبرة أكثر بهذا المرض .. »

ـ « حسبت أننى سأعمل فى مشروع مكافحة مرض النوم »

ـ « لا شىء من هذا .. نحن نسيطر على المرض سيطرة تامة .. خذهـا كقاعدة : حيثمـا وجدت اضطرابات سياسية ظهر مرض النوم ؛ لأن مشاريع المكافحة تتعطل كلها .. نحن هنا فى مكان مستقر سياسيًا بالنسبة للقارة السوداء .. »

ثم ألقت به فى قبضة طبيب غربى أصلع الرأس أحمر الوجه كالجمبرى المسلوق :

ـ « هذا هو دكتور (سميث ماكفادين) .. سوف يشرح لك ما يجب عمله »

ثم تركتـه بذات السرعة ، حتى شعر (علاء) بأنـه قد ألقى من قطار مسرع ..

تلقفه (ماكفادين) قبل أن يسقط على الأرض ، ليقول لـه بلهجة طريفة :

ـ « أنـا رئيس وحدة الإيدز هنـا .. آمل أنـك ستحب المكان .. »

من اللحظـة الأولـى أدرك (عـلاء) أنـه سيحب هـذا الرجل .. فهو ظريف لا يتكلف .. إنـه كتلة من العواطف الحـارة والاندفـاع .. هـذا لسبب بسيط طبعًـا هـو أنـه أسكتلندى وليس بريطانيًا .. هذه الـ (ماك) تعلـن ذلـك بوضوح ، دعك من لهجتـه ، وإن كانت إنجليزية (عـلاء) لا تسمح له بتمييز اللهجات ..

سأله الرجل ، وهو يرافقه إلى مكتب صغير على مدخل عنبر واسع :

ـ « كيف الأحوال هناك فى الغرب ؟ »

ـ « (الكاميرون) ! لا بأس .. الملاريا عنيفة جدًا .. »

ـ « لكنها تستجيب للكلوروكين .. هذه نعمـة لا تجدهـا فى باقى العالم .. »

ثم راح يسأل (علاء) عن بلده وعـن أسرتـه .. واقتـاده إلى العنبر ليقدم له الموجودين .. خليطًا من الجنسيات كما فى (سافارى) فى كل مكان .. هناك طبيبة مجرية .. طبيب

أسبانى .. ممرضـة فلبينيـة .. ممرضـة مـن الزولـو .. ممرضات تشيكيات ..

هذه هى عنابر الإيدز .. وهذا يختلف عن مرض HIV طبعًا .. نحن الآن فى مرحلة فقدان المناعة ، عندما يتحول المريض إلى شىء مهدد بالموت لأى سبب .. أنتم لا تتابعون قصص (علاء) كلها ، ولو فعلتم لوجدتم أنه مر بقصة كاملة مع هذا الداء الوبيل ..

القمر الآن يبدو قريبًا جدًا واضحًا ..

من الواضح أن منتصف الليل قد ولى ..

يجب أن أصمت الآن لتناموا قليلاً ، لكن موعدنا مساء الغد لأستكمل لكم القصة ..

★ ★ ★

الليلة الثالثة

مرحبًا بكم ..

جئتم مبكرين هذه الليلة ، لكنى لم أر بعد الحماس فى العيون . أنا أعرف هذه الأعراض ولا تفزعنى .. كل راو محترف يعرف أن القصص تكون مملة فى بداياتها مهما فعلنا ، ومن الخير أن تدس كل ما هو غير مسل مع هذه البدايات المحبطة لتتخلص منه .. من العسير على المستمع أن يتخلى عن القصة وهى لم تبدأ بعد .. لهذا يجلس .. لهذا يتحمل .. وهذه اللحظات هى فرصتى الأخيرة كى أحكى تفاصيل مملة .. بعدها لن تسمحوا لى بهذا أبدًا ..

تضحكون ! لا بأس .. مهنتى تحتم أن تكون هناك ضحكات فى مواضع من القصة ، وشهقات فى مواضع أخرى .. حبذا لو كانت هناك دموع أيضًا ..

لقد اندمج الشاب (علاء) فى الوسط الجديد ، وراح يمارس عمله .. لم تضع أيامه فى (سافارى) الأولى هباء ، ولم يضع كلام (آرثر شيلبى) بلا جدوى .. إنه يعرف بالضبط ما يجب عمله ..

على أنه حين انتهت ساعات العمل وجد نفسه فى غرفته .. ليست غرفة حقيرة ، كما أنها مزودة بجهاز تكييف .. لكن من المجنون الذى يشغّل جهاز تكييف فى (الناتال) ؟! هذه هى سخرية الموضوع : حينما توشك على أن تُشوى حيًا يمدّون غرفتك بمروحة سقف ، وحينما تشعر بأنك موشك على التجمد ليلاً يمدونك بجهاز تكييف على أحدث طراز ..

عندما انتهت ساعات العمل ، وجد نفسه فى الغرفة وحده .. شعر بحنين خانق يستبد به ، حتى ليوشك على الاختناق .. آلاف الأميال تفصله عن (برنادت) ووحدة (سافارى) العزيزة .. وآلاف آلاف الأميال تفصله عن بلده مصر وأسرته .. يشعر بها تجثم على روحه ..

ماذا أفعل هنا ؟! أشعر بأننى أتدلى من ذقن تلك الجمجمة التى تمثل إفريقيا .. يكفى أن تنزلق يدى لأسقط فى المحيط

وتفترسنى التنانين .. إنه الآن يفهم ما كان البحارة القدامى يكتبونه على خرائطهم عند طرف إفريقيا الأسفل : « لتكن هنا تنانين **Here there be dragons** » ..

(فاسكو دا جاما) مر هنا يومًا ما .. لكنه لم يتوقف كثيرًا .. كان فى طريقه إلى (ماليندى) ليلقى بحارًا عربيًا عظيمًا أخبره بالطريق إلى الهند .. إنه (أحمد بن ماجد) ..

غربة فى غربة فى غربة .. (علاء) الذى كان يعتبر ابتعاده عن مصر غربة ، صار اليوم يعتبر ابتعاده عن (الكاميرون) غربة أخرى .. (غريب فى غربتى) ، كما يقول شاعر عندهم ..

وعليه أن يتحمل هذا الاشتياق الحارق عدة أشهر .. لكن هل تتحملـه (برنادت) ؟ هل تظل حية سالمة ؟

يلتف بالغطاء ويرتجف .. ليس من البرد بل مما هو أدهى من البرد ..

يرتجف من الحنين !

★ ★ ★

راح يجوب العنابر فى صحبة طبيب ألمانى يدعى (فيلى فيرتايمر) وممرض يدعى (بوثليزى) .. هذا الـ (بوثليزى) من الزولو لكنه يجيد عدة لغات .. وهو على قدر عال من الكبرياء .. الكبرياء الذى يعبر الخط الفاصل إلى الغرور أكثر من مرة .. لا تعرف السبب ، لكنه متعال جدًا وهو كذلك متأنق جدًا ، حتى ليبدو الطبيبان رثين بالنسبة له ..

على الأسرة يرقد هؤلاء التعساء بعيونهم المتسعة لا يقولون إلا كلمة واحدة : اشفنا ..

بعد حوار بلغة الزولو تخللته كثير من الطرقعات والطقطقات (هذه أحرف بالنسبة للزولو) ، يقول الأخ المترجم وهو يستند إلى حاجز الفراش :

ــ « هذا الرجل من (توجيلا فيرى) .. هذه القروح فى فمه تمنعه من الأكل .. ثم إنه يعانى صداعًا رهيبًا يوشك على شق رأسه إلى نصفين .. هذه هى كلماته .. »

طبعًا كان المريض مريض (إيدز) لهذا يجب تفسير كلماته على ضوء الإيدز .. لماذا لا يستطيع الأكل ؟ لأن الفطريات تغطى غشاء فمه .. لماذا يشعر بالصداع ؟

قال الطبيب الألمانى لـ (علاء) :

ــ « نحتاج لدرجة عالية من الشك فيما يتعلق بحالات التهاب السحايا الناجمة عن (كربتوكاس نيوفورمانس) .. أحيانًا يكون الصداع هو العرض الوحيد فى مريض الإيدز .. لو لم تأخذ هذا العرض بجدية فلربما نفقد المريض .. هل تجيد أخذ عينة من السائل النخاعى الشوكى ؟ »

طبعًا (علاء) يجيد هذا ، لكن مع مريض (إيدز) ؟ ماذا عن العدوى ؟ إنه يرى بوضوح وجلاء منظر الإبرة تخرج من ظهر الرجل لتنغرس فى يده .. لقد مر بموقف كهذا من قبل .. لكنه يكره أن يتكرر ..

إلا أنه كان بحاجة لإثبات أنه بارع وغير مدلل ؛ لذا تولى المهمة ..

هناك غرفة مخصصة لهذه العمليات البسيطة .. لهذا توجه إليها ودخل إلى الحمام المجاور ليقوم بطقوس التعقيم .. شعر بمن يقف جواره فالتفت .. كانت تلك الممرضة من الزولو تقوم بطقوس التعقيم بدورها .. تشمر ذراعيها وتغسل يديها بالماء والصابون ثم تدعكهما بفرشاة مغموسة فى مطهر ..

كانت منهمكة فيما تقوم به فلم تلحظ أنه ينظر لها مدققًا فى المرآة .. الحق أنهـا كـانت جميلـة لـو كنت تفهم معنـى الجمال الأسمر .. العنق الطويل الذى يذكرك بغزال خرج من الدغل .. عينان ساحرتان خاصـة وهى تنظر لأسفل ، ومـا من فتاة لا تبدو أجمل عندما تنظر لأسفل ، كأنما خلق اللـه المرأة وكتب لها أن تكون أجمل عندمـا تطرق خفرًا .. ثم إنها تضع كمامة على فمها وهذا نموذج أسطورى للجمـال : المرأة التى لا فم لها ..

بطريقة عملية تغادر الحمام ، وعندمـا خـرج إلـى الغرفـة وجد المريض التعس جالسًا وقد ثنى ظهره العظمى النحيل لتتبدى الفقرات .. وكـانت الممرضـة قـد ارتـدت قفازيهـا وساعدته على ارتداء قفازيه ..

بدأ يدهن ظهر المريض بالمادة المطهرة ، ولم يتمالك أن سألها بالإنجليزية :

ـ « ما اسمك ؟ »

قالت فى تهذيب وهى تساعده :

ـ « (أونوابا) يا دكتور .. »

لا يدرى .. كان يتخيل لهـا اسمًا أكثر رقـة .. ربمـا اسـم فيه حروف ميم وسين وربما بعض حروف اللام على سـبيل المرح .. لكن (أونوابا) اسم إفريقى جدًا .. ومـا ذنب الفتـاة ؟ إنها إفريقيـة ولـن يصير اسمها (مـادلين) أو (سيمونا) لمجرد أن هذا يروق له ..

راح يتحسس بأنامله موضع دخول الإبرة .. ثم سألها :

ـ « عرفت أنك من الزولو .. »

لم ير فمها لكن عينيها ضحكتا ، وقالت :

ـ « (أونوابا) اسم شديد (الزولية) Very Zulu »

غرس الإبرة فشعر بها تشق طريقها .. شعر بها تضع يدهـا على ساعد المريض وتهمس له بشىء بلغة ما .. واضح ـ طبعًا ـ أنها تقول : انتهى الأمر .. لا تقلق .. شىء من هذا القبيل ..

سحب الثاقبة فراح السـائل يتدفق .. مدت يدهـا بـأنبوب الاختبار تتلقى السائل الثمين الذى بدا له رائقًا ..

قال لها ، وهو يراقب امتلاء الأنبوب :

ـ « سوف نصبغه بـ ... »

ـ « بالحبر الهندى .. أعرف .. »

انتزع الإبرة ذاتها وبدأ يضع الضمادات .. وقال للرجل بالإنجليزية ، ما معناه : لقد انتهيت يا حاج .. لا تقلق .. لكن البائس كان قلقًا فعلاً ، ولا يعرف حرفًا من الإنجليزية .. قالت له وهى تنزع قفازيها :

ـ « جيابونجا .. »

لا يدرى هل هو واهم أم أن المقاطع التى يسمعها بلهجة الزولو لها رنين ساحر .. الآن صار يعرف (صالاداشى) و(جيابونجا) .. ثم نزعت الكمامة فأدرك أن بعض النساء قد يكون لهن فم وبيقين جميلات ..

سألها عن مصير الأنبوب .. هل يحتفظ به ، فهزت رأسها أن يترك هذه الأمور لها .. لقد قام بما يجب ، وعليه ألا يشغل باله ..

لها سحر خاص ، هكذا فكر وهو (يفك تعقيمه) كما يقول الجراحون ، مهذبة نظيفة على درجة من الكفاءة ..

وجميلة أيضًا ..

★ ★ ★

لم يكن عنده ما يقوم به عصرًا ، لذا قرر أن يتجه إلى المدينة .. كان ذلك الطبيب الأسكتلندى لطيف المعشر (ماكفادين) يريد الخروج لابتياع بعض الأشياء .. وقد عرض عليه أن يصحبه ..

ـ « ماذا تريد ؟ »

ـ « أبحث عن غيار داخلى أزرق اللون ! »

ـ « أزرق ! هل هذا شرط محتم ؟ »

ـ « الغيارات ذات اللون الأزرق تكون جيدة وتتحمل الغسيل .. »

كان هذا أغرب شىء سمعه (علاء) .. الطبيب لا يبدو رقيعًا لهذا هو على الأرجح مجرد أحمق آخر .. غيار أزرق ! ما هذا الذوق العجيب ؟

ـ « هل تريد شراء بعض الغيار الأزرق بدورك ؟ »

قال (علاء) دون أن يضحك :

ـ « لا .. فى مصر نفضل الغيارات ذات اللون البنفسجى .. أنت تعرف جو الصحراء هذا .. »

فهز الرجل رأسه كأنه يفهم .. لا بد للصحراء من غيار بنفسجى .. هذا شىء معروف ..

زحام فى كل صوب .. الآن بدأ (علاء) يفهم حقيقة أنه فى برج (بابل) فعلاً لا مجازًا .. وجوه من كل نوع .. متاجر كبيرة تذكرك بشارع (سليمان باشا) عندنا ، وبائعات خضر يجلسن تحت مظلات .. هناك باعة تحف يذكرونك بـ (خان الخليلى) .. سياح فى كل صوب ..

ـ « هذا التمثال يروق لى »

كان هذا تمثالاً من خشب يمثل محاربًا من الزولو يلوح برمح [illegible]ف أن (برنادت) ستحبه لأنها مولعة بهذا الكلام الفارغ .. البائعة التى تدهن وجهها بالطين الأحمر على سبيل الوقاية من الشمس تنظر له فى ترغيب وتضحك كاشفة عن أسنانها الذهبية .. قال له الطبيب الأسكتلندى :

ـ « سأتولى أنا الفصال .. إنها ستحاول خداعك .. »

وراح فى حوار طويل مع المرأة بلغتها .. كانت مساومة عنيدة لكنك تعرف نوع هذه المساومات .. إن البائع يطلب أكثر مما يريد بكثير ، لهذا يكون أى عرض مربحًا مرضيًا له ..

قال (مكفادين) بينما البائعة تناولهما التمثال :

ـ « لاحظ .. كيف تعطيك إياه ! »

نظر (علاء) فوجد ان المرأة تناوله التمثال بيدها اليمنى ، بينما تضع راحة اليد اليسرى تحت ساعد الأولى ..

قال (مكفادين) مفسرًا :

ـ « لا بد من تقاليد البيع هذه لدى الزولو .. إنها تخبرك بهذه الحركة أنها لا تحمل أسلحة ، وأنه ليس لك أن تخشاها .. »

واصلا المشى فى السوق .. الطبيب الغربى لا يكف عن البحث عن غيارات زرق ، حتى شعر (علاء) بأنه سيفقد وعيه .. لقد رأى غيارات كثيرة لكنه لم يتحمس لأى منها ..

هناك خليط من الفقر المدقع هنا .. بعض الناس يلبسون ثيابًا من أجولة السماد وأحذية من إطارات السيارات .. وهناك ثراء فاحش ، يبدو فى ثياب القوم ونظاراتهم الشمسية الثمينة ..

وتذكر (علاء) كلمات المدير .. إنها صادقة فعلاً .. أعنف الفقر وأعنف الثراء يحتكان فيولد المولود الشرعى لهما : الجريمة ..

من بعيد يرى ميناء (دربان) ويرى سيارات عملاقة محملة بالأجولة تدخله محدثة فوضى لا تصدق فى المكان المزدحم .. أجولة سكر كما هو واضح ..

قال (مكفادين) الذى اعتبر نفسه دليلاً لـ (علاء) ومعه حق :

ـ « السكر .. أهم صادرات البلاد .. إن الزولو يجيدون زراعة قصب السكر .. الفدان هنا ينتج ما يزيد على ٤٠ طنًا .. بينما فى كوبا مثلاً لا ينتج الفدان أكثر من عشرين .. كانت هناك زراعة شاى متقدمة يومًا ما .. »

قال (علاء) باسمًا :

ـ « لا بد أن أصحابها كانوا الآسيويين .. »

هز رأسه موافقًا ، وقال :

ـ « أصبت .. أصبت .. فلما رحل هؤلاء انهارت هذه الزراعة .. لا أحد يستطيع أن يزرع الشاى كما يفعل الآسيويون .. »

فجأة ! وجد (علاء) نفسه يحدق فى وجه جميل مألوف ..

إنها هى .. (أونوابا) .. الممرضة الفاتنة التى ساعدته فى بذل النخاع الشوكى اليوم .. لم يتعرفها أولاً لأنها لا تلبس ثياب المستشفى ، لكنها كانت تلبس بلوزة وتنورة .. ثياب بسيطة هى لكنها أنيقة ، ومن جديد تحرك ذلك الشعور المرهف بالنظافة .. حذاء خفيف منخفض يسمح لقامتها الفارعة بأن تتساوى بالآخرين .. لا تلبس تلك الألوان الإفريقية الفاقعة التى تشعره بأنه سيفقد وعيه ..

كانت تمشى فى السوق حاملة حقيبة بها بعض الخضراوات ، فلما رأته والطبيب البريطانى هتفت :

ـ « ساكوبونًا دكتور ! »

تضغط على حرفى الكاف والنون ضغطًا غير رفيق ، كأنها تريد أن يغوص الحرف فى الأرض للأبد ..

رأت نظرة الدهشة فى عينى (علاء) ، فقالت فى مرح :

- « أنا من (توجيلا فيرى) لكنى أقيم فى (سافارى) .. أبتاع ما أريد من هذه المدينة .. »

قال د. (مكفادين) :

- « (أونوابا) هى مفخرة التمريض فـى وحدتنـا .. أنت عرفتها .. ثق أنها بارعة بحق وأمينة وصادقة »

ثم سألها فى صراحة يحسد عليها :

- « أبحـث عـن غيـار لونـه أزرق .. هـل يمكنـك أن تدلينى ؟ »

لو أن الوجه الأسمر يشى بـالاحمرار لبدا هذا واضحـًا ، لكنها ضحكت ضحكة مشرقة ونظـرت إلى جانب الطريق .. ابتلعت أفكارها وبدا أنهـا ستفقد الوعـى ، ثم أشـارت إلـى محل كبير له واجهة مغرية بحق ، وقالت :

- « هناك .. هناك .. »

- « غيار أزرق .. هل فهمت ؟ لا أريد أى شىء .. »

- « نعم .. نعم .. هم مختصون بهذه الأمور .. »

فكر (علاء) انه لو كان فـى مصر لوصف المحل بأنـه (بيشتغل فى الأزرق) لكن هذه هـى المشكلة .. دعاياتك لا قيمة لها هنا ..

قال (مكفادين) وهو يجرى ملهوفًا ليعبر الطريق :

- « أرجو أن تسلى طبيبنا الشاب يا (أونوابا) إلـى أن أبتاع ما أريد .. أعتقد أنه لم يعد يطيق جولة المحلات هذه »

هكذا وجد (عـلاء) نفسـه يقـف مـع تلـك الممرضـة .. ولسبب ما شعر بحرج غير معتاد .. هكذا راح يصفر وهو يثبت عينيه على بقعة بعينها من الأرض ..

قالت ، وهى تشهق ضاحكة :

- « ظريف جدًا د. (ماكفادين) .. يقولون إن الأسكتلنديين كلهم كذلك .. لو لم أعرفه جيدًا لحسبته مجنونًا أو وقحًا .. »

قال (علاء) ، وقد سره أن هناك خيطًا للحديث :

- « يقول إن الغيار الأزرق يعيش أطول .. هذا شأنه .. عرفت فى مصر رجلاً يؤمن أن الجوارب الكحليـة لا تُثقب بسهولة .. »

- « هى كبيرة جدًا .. هه ؟ »

- « الجوارب الكحلية ؟ »

- « بل مصر .. كبيرة جدًا ؟ »

- « كبيرة جدًا .. مزدحمة جدًا .. »

- « هل تحب (ديربان) ؟ »

قال صادقًا :

- « ليس تمامًا .. متمدينة أكثر مما يروق لشخص اعتاد الأحراش .. متخلفة أكثر مما يروق لشخص رأى (نيروبى) .. عندما رأيت (نيروبى) خيل إلى أننى فى باريس .. »

وقفا يتكلمان بعض الوقت عن كل شىء .. وفى النهاية ظهر الطبيب الأسكتلندى وقد بدا عليه سمت (على بابا) عندما عاد بكنوز الأربعين لصًا .. هكذا حيا الفتاة وجر ذراع (علاء) مبتعدين ..

لم ينس (علاء) أن يحرك شفتيه بصعوبة بالغة ليلفظ الكلمة :

- « سـ .. سـ .. ساكوبونَا ! »

- « ساكوبونَا ! »

ثم أردفت وهى تصحح :

- « إنه فراق .. لذا استعمل لفظة (صالاداشى) »

أنتم بدأتم فى التثاؤب .. ربما أطلت عليكم .. دعونا ننهى هذه الليلة ، وغدًا أحكى لكم باقى القصة ..

★ ★ ★

الليلة الرابعة

مرحبًا بكم ..

مرت أيام على (علاء) وبدأ يعتاد المكان .. لم يرتق الاعتياد إلى درجة الحب .. لكنه على الأقل لم يعد يشعر بذلك الاختناق كلما فكر فى (برنادت) ..

المدير (بالينجا بايلا) من الطراز الذى لا يختلط بمرءوسيه .. يفضل أن يكون فى برج عاجى منعزلاً عن الأحداث ، أما نائبة المدير (هانا فان بيردن) فكانت موجودة فى كل مكان ، وكانت تلاحظ كل شىء بعينى صقر ، لكنه لم يصطدم بها ..

فقط ذات مرة دخلت العنبر وراحت تتفقد كل شىء ، ثم استوقفت الممرضة (أونوابا) وراحت تتكلم معها بلغة لم يفهمها (علاء) .. كانت تتكلم بحزم وعصبية ، بينما الممرضة ترد برقة مهذبة ، لكنها لا تخلو من حزم بدورها .. ما هذه اللغة ؟ فى لحظة يخيل إليك أنها الألمانية ، لكنك لا تتبين أية

كلمة تعرفها من تلك اللغة .. ذات ما يشعر به عندما يسمع التركية .. فهناك لحظات بعينها يعتقد أنه يسمع الفرنسية ولحظات يحسبها العربية ، لكنه لا يتبين أية كلمة مألوفة من اللغتين ..

ثم تذكر .. نحن فى (الناتال) .. إذن هما تتكلمان بالهولندية .. هذا منطقى ..

قالت النائبة شيئًا فى عصبية وانصرفت ، على حين وقفت (أونوابا) صامتة .. خيل إليه أنه يرى دمعتين فى عينيها تجمدتا بفعل كبرياء وغيظ مكتوم ..

دنا منها وسألها عما هنالك ، فقالت بالإنجليزية :

- « تتهمنى بأننى تأخرت فى تسلم الوردية .. وهذا جعل أحد المرضى يلفظ أنفاسه .. دائمًا تتهمنى بالتأخير .. »

- « وهل هذا صحيح ؟ »

- « لم يحدث .. لقد توفى المريض قبل بدء ورديتى بثلاث دقائق .. كانت معه الممرضة التشيكية .. سوف يثبت التحقيق هذا لكنها لن تفعل .. هى تعرف قبل أى واحد آخر أننى لم أتأخر .. »

- « وما سبب هذا التحرش ؟ »

نظرت له كأنها تنظر إلى طفل ساذج ، وقالت :

- « هى هولندية .. من (البوير) .. وأنا من (الزولو) .. ماذا تتوقع ؟ إنهم كانوا الطغاة المستعمرين ، الذين يعاملون السود كأنهم أقل من البشر .. هذا هو نظام (الأبارتايد apartheid) أى التفرقة العنصرية .. منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٩٤ .. ظلوا يعاملوننا كالحيوانات .. وكانوا يعزلوننا فى أماكن خاصة .. منعوا الزواج بيننا وبينهم .. منعونا من الانتخاب برغم أننا كنا الأغلبية .. هل تعرف أن بلدك مصر كانت من دول الـ quota ؟ أى الدول التى يُعامل أهلها معاملة سيئة لدى قدومهم إلى هذه البلاد ! والسبب أن اللون متقارب نوعًا .. (غاندى) كان فى جنوب إفريقيا يدرس القانون وعومل معاملة العبيد ؛ لأنه من دول الـ Quota هو الآخر ، وقد علمته هذه المعاملة الثورة ضد بريطانيا حتى طردها من الهند .. لكن جاءت اللحظة التى لا مفر منها ، وازداد عدد السود ليلتهم القلة الهولندية ، وعادت البلاد لنا .. »

فكر (علاء) .. هذا هو السيناريو المحتوم الذى يرتجف قادة إسرائيل منه ، ويطلقون عليه (القنبلة الديموجرافية) ، لهذا يحاولون إبعاد الفلسطينيين قدر الإمكان ، ولهذا ترحب أوروبا بأى فلسطينى هجر وطنه وتفتح له فرص العمل ..

إن حكومة جنوب إفريقيا وحكومة إسرائيل تتشابهان بشكل مريب .. وهذا يفسر الغرام المشبوب بين الحكومتين وتحديهما للعالم كله ..

رفعت الفتاة رأسها ، وقالت فى شمم :

- « لقد أذاقهم قومى من (الزولو) الويل .. وهم لا ينسون هذا .. صالاداشى ! »

ثم مضت تمارس عملها كغزال رشيق بين الأسرة ..

★ ★ ★

عندما جاء المساء اتجه (علاء) إلى غرفة د. (ماكفادين) وعرض عليه أن يخرج معه ، لكن الطبيب الشاب الأسكتلندى كان راقدًا فى الفراش بثيابه الداخلية الزرقاء ، يشاهد التليفزيون ، وقال إنه لا يرغب فى الخروج الليلة ..

ـ « فقط خذ الحذر .. لا تتأخر كثيرًا ولا تحمل مبلغًا ضخمًا من المال .. »

هكذا وجد (علاء) أنه مخير بين إلغاء الجولة أو الخروج وحيدًا .. كان يشعر بأنه يختنق وهو بحاجة إلى الهواء الطلق ، لعله ينسى قلقه على الوطنين .. مصر والكاميرون ..

سوف يكتب خطابًا لـ (برنادت) لدى عودته ويرسله بالبريد الإلكترونى .. إن هذا البريد السحرى الذى لم يكن أحد يعرفه قبل عام ١٩٩٢ ، قد قلص حجم العالم إلى درجة لا تصدق .. سوف يرسل الخطاب وربما يتلقى الرد فى الليلة ذاتها ..

مشى فى شوارع (ديربان) التى صارت ملحمة أضواء .. الجو بارد قليلاً لكنه منعش .. يتذكر هذه الشوارع لأنه مشى فيها ذلك الصباح ، وإن كانت قد صارت خالية من الباعة الآن ..

كان هناك هاتف عمومى توقف عنده ، وبحث عما معه من عملات .. جرب أن يدس بعضها وطلب رقمًا لن ينساه أبدًا .. انتظر حتى يسمع الرنين .. حبس أنفاسه .. لكن

شيئًا لم يحدث .. فى النهاية ألقى له الهاتف العملة التى وضعها فى اشمئزاز ..

تنهد (علاء) ومشى يتفقد واجهات المحلات .. الأسعار مرتفعة بلا شك .. من حين لآخر يقابل وجهًا قبليًا يحمل معالم مميزة .. استطاع أن يحدد ثلاثة أنواع من الوجوه .. الزولو .. هناك وجوه مثلثة لها طابع ثعلبى واضح .. ووجوه زيتونية اللون غائرة الخدين .. تمنى لو كان معه من يعرف أكثر ..

هنا سمع من يناديه بالإنجليزية :

ـ « سيدى .. أنت طبيب ؟ »

التفت إلى مصدر الصوت فوجد رجلاً ضئيلاً حافى القدمين ، يمسك بقبعته فى مداهنة ، وينظر له نظرة كلها توسل واستعطاف ..

ـ « أنت طبيب فى تلك الوحدة .. أنا رأيتك هناك .. »

ـ « نعم .. نعم .. »

ـ « إنه أخى .. يبدو أنه يموت .. لابد أن السماء أرسلتك لنا .. »

وانفجر الرجل فى البكاء غير مصدق هذه المعجزة التى هبطت عليه ..

- « ما شأنه ؟ »

جفف الرجل دمعه ، وأشار إلى زقاق قريب :

- « إنه لا يرد .. كنت أكلمه وفجأة ! تحسس صدره وسقط على الأرض .. أنا أعرف يقينًا أنه مات .. رباه ! لا تقل هذا .. لقد مات .. بل هو قد مات .. أنا أعرف هذا ! »

كان يتكلم وهو يهرع إلى الزقاق مذعورًا .. لم يجد (علاء) بدًا من أن يتبعه وهو يتساءل عن أسباب سقوط الرجل فجأة . إغماء عادى أم سكتة دماغية أم سكتة قلبية أم ... ؟

الزقاق مظلم .. بصعوبة يمكن أن تتبين ما يحدث ..

على الأرض هناك شخص أو شىء أو فيلق من الجيش الرومانى .. يمكن أن يكون أى شىء فهو لا يرى ..

بدأت عيناه تتعودان الضوء الخافت .. واستطاع أن يميز الموجودات .. لم يكن مخطئًا بصدد الجيش الرومانى ؛ لأنهم كانوا ينتظرونه بخمسة رجال .. خمسة ثيران آدمية

كأنما العضلات لا تكفيها فتدججت بالسلاح .. عيون بيض تلتمع فى وجود سود ..

الآن فهم .. هناك ثوان ينسى فيها المرء الدرس وتكون قاتلة .. الخنازير الصغيرة أخطأت وفتحت الباب للذئب .. نظر للوراء فوجد أن الثغرة انغلقت .. كان أحمق ..

قال أحدهم ، وهو يلوح بشىء يلمع فى الضوء الخافت :

- « نقود .. ساعة .. خاتم .. أى شىء .. »

وقال آخر بالإنجليزية :

- « نعم .. نعم ، وثيابك أيضًا ! »

ثم دارت محادثات بلغة لا يعرفها .. ربما هى البانتويد .. ربما هى لغة الزولو بالذات ؛ لأنه يسمع طقطقة من حين لآخر ..

لقد أخطأ هؤلاء اختيار الضحية ، لأن (علاء) هو آخر شخص يقبل بأن يجرد من ماله وثيابه .. وهو لا يبالى بالعواقب ..

هكذا انطلق بأعنف ما يمكن ليسدد ضربة فى فم معدة أحدهم ، ثم ركل بطن آخر ، وقبل أن يفيقوا كان قد هشم

أنف ثـالث .. إن الثغرة تنفتـح .. سوف ... فقط عليـه أن يجرى بأقصـ ...

هنا شعر بذلك الشىء يخترق بطنه ..

لم يصدق للحظـة .. الآخرون فقـط هـم مـن تخـترق أمعاءهم مدية .. بدا لـه ذلك غير حقيقى ، وكأنـه يحدث لشخص آخر .. هنا شعر بطعنـة أخرى تخترق كتفـه .. غريب ! لماذا يؤلم الكتف ولا تؤلم الأمعاء ؟ من الغريب أنه يبحث عن تفسير طبى بينما هو يموت .. ربما يبحث عنه لأنه يموت .. الأمعاء لا تشعر لأن عليها طبقة من الغشاء البريتونى ، وفيه ضفيرة أعصاب سمبثاوية تشعر مثل أى ...!!

هذه كانت عصا هوت على جانب رأسه ..

سقط على الأرض ..

إننى أموت .. لا شك فى هذا .. هذه هى المرة الأخيرة .. كانت حياة قصيرة صاخبة لكن من المهين أن تنتهى بعملية سطو فى زقاق ...

هنا شعر بأنهم يتحسسون جيوبه .. يفرغونها مما فيها .. ثم لم يعد هناك أحد حوله ..

لن أموت هنا .. اصبر قليلاً يا صاحبى .. أعطنى فرصة من فضلك .. ربما كان إصلاح هذا ممكنًا .. كان يرى أشباح الموت من حوله جاءت تصطحبه ، وهو يشير إلى الجروح ضاحكًا : هل ترون ؟ هذا ممكن إصلاحه .. وهذا .. سوف يخيطه الجرّاح .. هل ترون ؟ لا أمل فى موتى هذه المرة .. يمكنكم الرحيل مشكورين .. آسف لإزعاجكم دون طائل ..

مخرج الزقاق .. الشارع الصاخب ..

يزحف ..

هناك عشرات الأحذية تحيط به .. هل هم القتلة أم هم أشباح الموت ؟ لا يعرف .. فقط راح يردد ، وهو يزحف على أربع :

- « (سافارى) .. (سافارى) .. »

ثم لم يعد يذكر أى شىء ..

أراكم قد أرهقتم ، وغدًا يوم طويل بالنسبة لكم .. لهذا أكتفى هذه الليلة .. لكن لا تنسوا موعدنا عند السنديانة العجوز غدًا ..

★ ★ ★

الليـلة الخامسة

مرحبًا بكم ..

الزمن مرتبط بالوعى إلى حد غير مسبوق .. لهذا اختلط مفهوم الساعات الأيام الشهور .. فقط يذكر أنه كان يرى أطيافًا من حوله ، وأنه مضمد وألم عميق يعصف بكتفه .. يذكر كيسًا من الدم الأحمر معلقًا هناك ..

كانت هناك رؤى .. هناك سكين بحجم الكون تحز عنقه .. هناك حرباء تتلون بلون الدم ثم تسود ببطء .. لسانها يخرج ليلتف حول عنقه ثم يعود .. (الماساى) يركضون فى الحقول ، وشعورهم المستعارة التى صنعوها من لبدة الأسد تتطاير فى الهواء ..

ومن بعيد تدوى أغنية بلغة الزولو ، لكن من الغريب أنه يفهمها :

ـ « عار على الجبان الذى يظل فى كوخه حتى يحترق .. اخرج وقاتل .. هيه هيه ىىىىى ! »

يرى وجه (أونوابا) يطل عليه من أعلى .. ويضحك ..

ـ « أنت بخير .. »

تقول :

ـ « آسفة لأننى تأخرت عليك .. كالعادة تأخرت ! »

تقول :

ـ « ساكوبونًا ! »

★ ★ ★

عندما أفاق (علاء) أخيرًا كان فى الفراش فى قسم الجراحة .. غرفة نظيفة خفيضة الإضاءة .. جواره يجلس المدير د. (بالينجا بايلا) يرقبه من وراء شاربه الكث الأبيض ، يقول له :

ـ « لقد نجوت أيها الشاب .. يعلم الله أن هذا كان عسيرًا .. »

قال (علاء) ، وهو يشعر بأنه لم يستعمل صوته منذ عشر سنوات :

ـ « لقد تعودت هذا .. »

ـ « أرى أنك لم تصغ لنصائحى .. قلت لك إن البلدة خطرة جدًا .. أخطر مما تتصور .. لكنك ضربت بنصائحى عرض الحائط ! »

ـ « سمعت تحذيرات مماثلة من د. (فان بيردن) وحسبت أنها ... »

وابتلع كلامه كى لا يثرثر أكثر من اللازم ، قال المدير :

ـ « حسبت أنها إشاعات عنصرية .. ربما .. لكن عندما يأتى الكلام منى أنا فلا تأخذه بخف »

ثم أضاف ، وهو ينظر إلى الجهة الأخرى :

ـ « على كل حال قد أنقذتك (أونوابا) .. أنقذتك مرتين .. »

هب (علاء) مندهشًا .. نظر إلى جوار الفراش فوجد (أونوابا) جالسة على مقعد خشبى ، وهى تنظر إلى الأرض .. عيناها تترقرقان بالدمع الذى لا ينحدر .. أبدًا لا ينحدر ..

قال المدير ، بصوته الوقور :

ـ « كانت هناك مصادفة فى هذه الساعة المتأخرة .. كانت تتسوق كعادتها من (ديربان) ، عندما رأت المارة يلتفون حول جسد دام على الأرض .. دنت منك فعرفتك .. وسرعان ما كانت تعمل جاهدة لتوقف النزف ، ثم استدعت سيارة الإسعاف .. ظلت معك حتى المستشفى .. كانوا يبحثون عن دم لك ؛ فأعطتنا وحدة كاملة من دمها ! »

هنا هب (علاء) مذعورًا .. الخبر يستدعى الكثير من الانفعالات لكن فيما بعد .. لكن لا تقل لى من فضلك إننى أخذت وحدة من دم هذه الفتاة فى بلد يتفشى فيه الإيدز ، وهى ممرضة لا تعمل إلا مع مرضى الإيدز .. دعك من الملاريا ، والبابسيا ، والزهرى ، والتهابات الكبد ، وفيروس (إبشتاين بار) ، والفيروس المضخم للخلايا و ...

رأت عينيه اللتين تصرخان بما يدور فى ذهنه ، فقالت :

ـ « كنت قد تبرعت بهذه الوحدة من قبل لمريض آخر ، وحفظتها فى الثلاجة إلى أن يتأكدوا من أنها خالية من الإيدز والملاريا والتهابات الكبد .. بالفعل وجدوا أنه دم ممتاز .. لما وجدتك فى هذا الموقف أسرعت بإحضار الكيس لك .. إن المريض الآخر يمكن أن ينتظر .. »

هنا تدخل المدير :

ـ « ثم إن (أونوابا) ظلت هنا .. طلبت أن ننقلها لعنبر الجراحة فلم أر ما يمنع »

كان (علاء) يرتجف انفعالاً .. إذن كان الأمر بهذا السوء فعلاً ..

إن الضمادات تعوق حركته .. يبدو أنه صار صالحًا للقيام ببطولة فيلم المومياء بدلاً من (كارلوف **Karloff**) ذاته .. الألم شديد ، لكن كانت أمه تقول مثلاً عاميًا لا ينساه :

ـ « ما دام العود موجود .. اللحم يجود » .. معنى هذا أنه ما دام حيًا فلا بأس ببعض الإصابات التى ستُشفى سريعًا .. المهم أن يجد اللحم مشجبًا يوضع عليه ..

أما الغريب فى الأمر فهو أن دم (أونوابا) صار يجرى فى عروقه .. هل لهذا أهمية ما ؟

نظر لها .. فرفعت وجهها وابتسمت .. هل هذه الدموع من أجلى أنا ؟ حرك شفتيه إلى أن استطاع أن يقول :

ـ « جيابونجا »

بلهجة لا بد أنها مضحكة ؛ لأنها التزمت بالتقليد حرفيًا ، ثم غاب عن الوعى أو نام .. لا أعرف بالضبط ..

★ ★ ★

سألها ، وهو يرشف العصير الذى جلبته له :

ـ « من هم أولئك القوم قصيرو القامة الذين لهم وجوه الثعالب ؟ إنهم منتشرون فى (ديربان) بشدة .. »

قالت ضاحكة :

ـ « أنت تتكلم عن قبائل (البوشمن **Bushmen**) .. لم يعودوا كما كانوا فى الماضى .. إنهم قصيرو القامة فعلاً ، ولهم وجوه ثعلبية مثلثة .. آذانهم لا شحمة لها .. كانت مجتمعاتهم قاسية جدًا ، فهم لا يعترفون بالروابط الزوجية ، ويلقون شيوخهم لبنات آوى .. ليس عندهم عد لأكثر من أربعة .. لغتهم لا تتجاوز ٦٣ كلمة .. كنت تراهم يحملون جرة بها خمرهم المصنوعة من العسل ، وحول خصر الواحد منهم بيضتا نعام مليئتان بالماء على سبيل الزمزمية .. طعامهم هو الحشرات والجذور .. »

قال فى دهشة :

ـ « إذن هم أكثر البدائيين بدائية .. »

ـ « كانوا كذلك يا دكتور .. كانوا كذلك .. »

★ ★ ★

سألها ، وهو يقطع الدجاجة التى أحضرتها له :

ـ « هل هى ؟ »

هزت رأسها ، وقالت :

ـ « مذبوحة شرعًا على طريقتكم .. لا تخف .. أعرف هذه الأمور .. عندنا هنود مسلمون كثيرون فى (ديربان) فلا تقلق .. عم كنت تسأل ؟ »

ـ « رجال لونهم زيتونى ، ولهم عيون غائرة .. إنهم طويلو القامة ، يثبتون فى شعورهم بعض القواقع »

ـ « تتحدث عن (الهوتنتوت) .. إنهم جاءوا من الشمال هربًا من بعوضة (تسى تسى) .. يطلقون على أنفسهم اسم (خوى خوى) .. ومعناها (رجال من رجال) .. مرحون مسرفون قذرون .. عامة هم أرقى من (البوشمن) ، لكنهم أقل تحضرًا من (الزولو) و (البانتو) .. »

قال فى دهشة :

ـ « إذن الزولو هم أكثر القبائل تحضرًا .. »

قالت ضاحكة :

ـ « هم كذلك يا دكتور .. هم كذلك .. لا تنس أننى من الزولو ! »

★ ★ ★

تعافى (علاء) ..

وفى الليالى الهادئة كان يجلس ليكتب خطابًا لـ (برنادت) .. كان يعرف أن البائسة سوف تقلق عليه عندما ينقطع البريد الإلكترونى .. الخطاب سوف يستغرق دهرًا حتى يصلها ، لكنه لم يكن قادرًا على الوصول إلى جهاز كمبيوتر ..

هكذا جاءه الأسكتلندى (مكفادين) يطمئن عليه كعادته اليومية ، فطلب منه أن يرسل خطابًا إلى (برنادت) وأعطاه عنوانها الإلكترونى ..

ـ « قل لها إننى بخير .. وإننى مشغول جدًا ؛ لهذا أختصر الخطاب .. لا تقل حرفًا عما أصابنى .. »

هز الطبيب الأسكتلندى رأسه الأصلع ، ووعده بأن يفعل ..

فى اليوم التالى جاءه فى الصباح ليربت على ساقه من تحت الملاءة ، ويقول له فى مرح :

ـ « كتبت لها كما طلبت .. »

ـ « شكرًا لك .. »

ـ « قلت لها إنك بخير ، وإنك مشغول لهذا لم تستطع الكتابة بنفسك ! »

هب (علاء) فى الفراش فآلمه كل جزء فى جسده :

ـ « عم تتكلم ؟ هل خاطبتها بصيغة الشخص الأول على غرار (ذهبت فعلت) ؟ .. أم بصيغة الشخص الثالث على غرار (ذهب فعل) ؟ »

قال (ماكفادين) فى مرح ، وهو يفتح علبة زبادى وجدها جوار فراش (علاء) :

ـ « هل تريد هذه ؟ سآكلها .. لا أفهم موضع الشخص الأول والثالث هذا .. لكنى بالطبع قلت لها (علاء مشغول وسوف يتصل بك فيما بعد) ! »

كانت علاقة (علاء) بالطبيب الأسكتلندى لا تسمح له بركله أو سبه ، خاصة أنه رئيسه برغم كل شىء ؛ لذا اكتفى بأن نظر له نظرة نارية ، ثم انتزع علبة الزبادى منه فألقاها فى سلة المهملات جوار فراشه ..

لقد ازداد الأمر سوءًا فلابد أنها جنت الآن .. إن (مكفادين) ليس ساذجًا فقط ، بل هو أحمق .. لم يعد سوى حلٌ واحد ، هو أن يغادر الفراش سريعًا ويتصل بها ...

أنتم نشطون راغبون فى استكمال القصة ، لكنى أنا من يعتذر هذه الليلة .. إن صوتى قد تحشرج ويبدو أننى مضغت الكثير من التبغ أمس !

سأكمل لكم القصة غدًا ..

★ ★ ★

الليلة السادسة

مرحبًا بكم ..

الطقس يتغير هذه الليلة .. هناك برد ينخر العظام وثمة سحب فى كبد السماء .. من فضلكم أعطونى فراء النمر هذا أتدثر به .. عندما لا يكون تحت جلدك قطعة دهن واحدة تمنع البرد ، تكتشف القيمة الحقيقية للنار ..

أين توقفت ؟

آه .. عندما قرر (علاء) أن يخاطب (برنادت) بنفسه هاتفيًا .. هكذا فعل .. وجاء صوتها مرتعشًا خائفًا ..

ـ « هل أنت بخير ؟ »

ـ « بالطبع .. هناك قصة يطول شرحها وشخص أحمق ما .. لكنى بخير تمامًا .. »

قالت له إن الأمور هادئة هناك .. طبعًا .. هو يعرف هذا .. كما أن الأمور هادئة هنا .. كلاهما يكذب .. فقط يدعو الله ألا تكون قد تلقت طعنة شديدة أثناء محاولة السطو ..

قالت له :

ـ « أحلم أحلامًا مروعة .. »

ـ « أنت لم تتركى شيئًا للنساء الشرقيات .. إنهن يحلمن طيلة الوقت .. »

ـ « ربما انتقل بعض من طيف (شرقيتك) إلى .. لا أدرى .. يبدو أن من يتذوق هذه (الملوخية) تتغير خلاياه بشكل ما .. هناك حرباء تزور أحلامى وتمط لسانها لتبتلعك .. »

حرباء ؟ مصادفة غريبة .. « هناك حرباء تتلون بلون الدم ثم تسود ببطء .. لسانها يخرج ليلتف حول عنقه ثم يعود .. » .. يبدو بالفعل أن هناك رباطًا روحيًا بينهما ..

قال لها ، متظاهرًا بالمرح :

ـ « دعك من هذه الترهات .. فقط حافظى على نفسك .. سأتصل بك صباح غد بتوقيتكم »

انتهت المكالمة فوضع السماعة ، وقاوم ذلك الشعور بالاختناق الذى يعتريه كلما تذكرها .. فجأة ! تجثم على صدره كل الصحارى وكل الأدغال وكل الأنهار التى تملؤها أفراس النهر والفيلة والأسود .. كل شىء يوجد بينه وبينها الآن ..

على الأقل هى تتكلم .. مازال كل شىء ممكنًا ..

★ ★ ★

منهمكًا فى تدوين العلاج لتلك المرأة التى فتك سرطان (كابوزى) بها ، شعر بالطبيب الألمانى (فيرتايمر) يلصق أنفه بكتفه وهو يكتب وانتظر حتى فرغ ، ثم قال :

ـ « أريد أن آخذ عينة دم من المريض فى الفراش رقم ٧ »

قال (علاء) ، فى برود دون أن يرفع عينه :

ـ « افعل هذا .. نحن فى بلد ديمقراطى حر كما تعلم .. »

ـ « أريد أن تفعل (أونوابا) ذلك .. »

ـ « إذن اطلب منها .. »

ـ « طلبت وتأخرت فى التنفيذ .. هى لم تعد تنفذ إلا تعليمات شخص واحد ! »

نظر له (علاء) للمرة الأولى .. لو أن النظرات تقتل لتحول الألمانى إلى لحم مفروم .. هذه مجرد سماجة مع نوع من الادعاء الزائف ؛ لأنه لا يوجد مزاح فى العمل .. تعليمات الوحدة صارمة وتتحرك كالساعة .. و(أونوابا) مطيعة نشطة .. إذن الألمانى يمارس نوعًا من (رمى البلاء عليه) ..

تظاهر (علاء) بالغباء ، وقال :

ـ « من ؟ »

ـ « أنت تعرف .. أنها تركتنا عندما جرحت أنت ، وعادت عندما عدت أنت .. إنها ممرضة طبيب واحد .. وأنت تعرف هذا .. »

أعرف هذا ؟

التفت للألمانى ، وهو ينظر له نظرة نارية .. إن وجه (علاء) الملىء بالشعر الأسود ، وعينيه الحادتين عندما تنظران من فوق إطار العوينات هى أدوات فائقة التأثير عندما يبغى أن يبدو صارمًا مخيفًا .. لقد مارس هذه البروفة عدة مرات أمام المرآة .. هو لا يعرف كيف يكون

صارمًا مخيفًا ، لكنه يعرف كيف يبدو كذلك .. كأنه تتلمذ على سادة (الطريقة **Method**) فى ستوديو الممثل ..

قال ، ضاغطًا على كلماته :

ـ « أولاً : أنا أمقت طريقة التلميح هذه .. لو كانت الفتاة لا تنفذ ما تطلبه فهذه مشكلتك وعليك أن تشكوها .. ثانيًا : أنا متزوج .. »

قال الألمانى ، بلا تعبير على وجهه :

ـ « وزوجتك بعيدة جدًا .. لربما كان من حقك أن تتسرى قليلاً .. دعك من أن الفتاة فاتنة فعلاً »

وقبل أن يعلق (علاء) كان الألمانى قد فر .. هذه من تقنيات (علاء) نفسه عندما يهاجم ثم ينسحب قبل أن يتلقى الرد .. وسمعه (علاء) ينادى :

ـ « (أونوابا) .. هلا جئت هنا ؟ لقد تأخرت فى أخذ هذه العينة »

الغزال الرشيق يخرج من الدغل بحثًا عن ينبوع الماء .. زرافة .. هذا هو اللفظ الأدق .. النظرة الوجلة قليلاً تضيف

إلى دقة التشبيه .. إنها قادمة .. قادمة .. جيابونجا .. جيابونجا ..

ألقت نظرة عابرة على (علاء) ، كأنما تطمئن على أنه موجود ، ثم لحقت بالألمانى ..

★ ★ ★

« هى لم تعد تنفذ إلا تعليمات شخص واحد ! »

« أنت تعرف .. أنها تركتنا عندما جرحت أنت ، وعادت عندما عدت أنت .. إنها ممرضة طبيب واحد .. وأنت تعرف هذا .. »

★ ★ ★

تلميحات وجدت طريقها إلى عقله الباطن ، وظلت تتصارع هناك .. حتى أذابت بعضها البعض ..

يتذكر وجه (برنادت) الرقيق الشاحب .. بالذات فى أحب وضع لها عنده : التشنيكة .. ثم يتذكر (أونوابا) وهى تجلس ناظرة للأرض ، والدمع متجمد فى عينيها .. غزال باك يطرق للأرض .. الشعر المجعد الذى يضيف طعمًا خاصًا لجمالها ..

يشعر بالاختناق وينظر إلى السقف ..

يا رب .. لتنته هذه الأيام بسرعة .. فلتحملنى أول طائرة إلى (الكاميرون) بعيدًا .. بعيدًا ..

كان (علاء) يشعر بتعاسة لا حد لها ، ويحاول ابتلاع شعور غامض يتلاعب فى روحه هذه الأيام بالذات ..

أمام المرآة كان يشذب لحيته .. يعيد رسم الدائرة المحيطة بفمه .. عندما جرح وجهه .. لم يصب بذعر أو يفعل أى شىء .. فقط وقف كالصنم يرقب قطرة الدم تسيل .. تسقط على فانلته الداخلية ..

معنى هذا أن هذا ليس دمى بالضبط .. معه شىء آخر .. معه دم آخر ..

مائة وعشرون يومًا .. سوف تعيش هذه الكريات مائة وعشرين يومًا .. هل تقدر الكريات على أن تسخر كيانك لها ؟ ثمة شىء كالسحر .. فهل هذا ممكن ؟

سحر ينتهى خلال مائة وعشرين يومًا مر منها شهر ..

يخرج إلى وحدة (سافارى) الخالية .. يقرع باب (ماكفادين) .. الطبيب الأسكتلندى الأصلع يجلس أمام التليفزيون بغياره الداخلى الأزرق ..

قال له (علاء) باسمًا :

- « يبدو أنه غيار متين فعلاً .. »

قال (ماكفادين) :

- « الأزرق هو خير الأنواع .. أنا لست طفلاً عندما يتعلق الأمر بالشراء .. إلى أين أنت ذاهب ؟ »

- « (ديربان) على الأرجح .. هل تخرج معى ؟ »

قال الطبيب ، وهو يقلب قناة التليفزيون :

- « لا أريد ، لكن ضميرى سيؤنبنى لو ذبحوك هذه المرة .. »

- « لا تقلق .. سأعود فى وقت معقول .. »

- « إذن اعتبر أننى أرفض .. »

وهكذا غادر (علاء) الوحدة للمرة الأولى منذ إصابته ..

بعد دقائق كان فى سيارة (المينى باص) التـى تنتقل مـا بين (سـافارى) و(ديربـان) ، يختنق بين الركـاب الذيـن يحملون أشياء كثيرة جدًا .. إنها الخامسة عصـرًا .. سوف يعود فى وقت معقول ..

هناك فـى (ديربـان) توقـف عند تلك المرأة التى تقف تحت مظلة وتبيع بعض الحلى المحلية .. مد يده إلى عقد وجده .. هو لا يفهم هذه الأشياء ، لكنه بدا له جميلاً .. وكأنـه منوم مد يده فدفع ثمنه ، وتناوله مـن المـرأة التـى حرصت على أن تقدمه بيدها اليمنى كالعادة ، وهى تسندها براحـة اليسرى ..

لمن اشتراه ؟ لم يعترف لنفسه بهذا ..

فقط عندمـا شعر بيد رقيقـة تلمس معصمـه ، وصوتها يقول :

- « كم دفعت لـ (إنسمبى) العجوز ؟ »

التفت للوراء ليراهـا هـى بـالذات .. (أونوابـا) .. هـل تعيش فـى (ديربـان) للأبـد ؟؟؟ كيف تجده بهذه السـهولة فى هذه البلدة المزدحمة ؟

مدت يدها تمسك بالعقد ، ورفعته لـتراه فـى النـور بشكل أوضح ..

قال لها السعر ، وأردف :

- « لا تفاصليها .. أنـا أقبل دفع هذا الثمن .. لو لـم يكن ثمن العقد فهو ثمـن الهدية .. أمقت أن أرى أحدًا يفـاصل فى ثمن هدية .. »

- « لا .. هذا كثير .. إنها تعتبرك سائحًا .. »

ثم انقضت على العجوز التى كانت تعرفها وتحبها كما هو واضـح .. ودارت محادثـة بلغة الزولـو المليئـة بطرقعـات اللسـان ، وفـى النهايـة استعادت نصف المبلغ الذى دفعـه وأعادته له .. العجوز راضيـة سعيدة برغم هذا .. واضـح أنه كان أحمق ..

قالت له ، وهما يبتعدان :

- « هذه التحـف يجيد الزولـو صنعهـا .. لكـن هـؤلاء النسوة اعتدن أن يضاعفن الثمن ثـلاث مـرات عندمـا يرين سائحًا مثلك .. قالت إننى تأخرت لكنى أصررت علـى السـعر الحقيقى »

لم يتكلم (علاء) .. فقط امتدت يداه تحملان العقد لتلفاه حول عنقها الطويل النحيـل .. لـم تتكلم أو تعترض .. فقط أطرقت .. أهدابها الطويلة تجرحان خديها ..

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لأنى أريد ذلك .. »

ثم ابتسم ، وأضاف :

ـ « هل فهمت الآن لماذا لم أجرب الفصال معها ؟ أنا لست أحمق .. فقط لم أرد ذلك .. »

قالت دون أن تضحك :

ـ « هل لديك ارتباط معين ؟ هل هناك وردية الليلة ؟ »

قال ، وقلبه يرتجف :

ـ « لا .. »

ـ « إذن اترك نفسك لى .. الليلة أنت ضيفى .. سأقودك إلى عالم الزولو الحقيقى ! »

غـدًا أستكمل هـذه الحكايـة .. لقـد صـار النـوم هـو صديقى الأمين كما تعلمون ..

★ ★ ★

الليلة السابعة

مرحبًا بكم ..

نحن الآن فى (توجيلا فيرى) .. بعبارة أدق قرية جوارها ..

هذه هى أكـواخ الزولـو التـى شبهوها دومًا بأنها تشبه أعشاش النحل .. مجموعات من الأكواخ تحيط بالماشية .. يطلقون على هذا التكوين اسم (كرال Kraal) ..

(علاء) يجلس جوار (أونوابا) .. هذه هى قريتها .. هذا هو عالمها الحقيقـى .. لقـد وصـلا هنـا بعـد رحلـة استغرقت ساعة أو أكثر بتلك العربات الـ (مينى باص) ..

النار تتأجج فـى ساحة القريـة .. لقد جن الليل ، وكان يعرف أنه سيركب مواصلة مرهقة إلى (ديربان) ثم إلـى وحدة (سافارى) ، فلن يصل هذه الأخيرة إلا صباح غد .. لكنه لسبب ما كان يشعر بالاطمئنان معها .. إنها تعرف كـل شىء .. سوف تحميه .. فكر فى هذا ، وغلب قهقهـة كادت تغلبه ؛ لأنه فطن لما فى هذا من سخرية ..

كان لها سبعة إخوة من الذكور ، وقد ذكرت له أسماءهم لكنه نسيها على الفور طبعًا .. أمها العجوز .. رئيس القرية الذى يطلقون عليه اسم (نكوسان) .. وقد قبلت الفتاة يده ، وقالت له العبارة التقليدية التى تقال للزعماء :

- « أنت الثور الذى يحمل الأرض ! »

جلست العجوز جوار النار واللهب يترقرق على جلدها الأسود ، وكما أحكى لكم الآن قصتى هذه كانت هى تحكى قصة طويلة ..

الفتاة تترجم له ما يقال :

- « فى البدء جاء (أنكلانكولو) القديم إلى الأرض وقد خرج من مستنقع .. أرسله إله السماء (أومفلينكانجى) أبو الرعد والزلازل .. هناك (مامبلامبو) الحسناء أم الأنهار .. و(مبابا موانا واريسا) أم قوس القزح .. حامية الزراع .. »

ثم توقفت عن الترجمة ، وقالت له :

- « طبعًا هذا هراء وثنى .. أنا لم أعد أؤمن به ، لكنى لا أظهر هذا .. تعامل معه كأساطير مسلية لا أكثر .. »

هز رأسه أنه مستمتع بما يقال .. فواصلت الترجمة :

- « (مبابا موانا واريسا) هى التى اخترعت الجعة .. »

ابتسم (علاء) ، وهمس :

- « يبدو أنها كانت رائقة المزاج .. عندنا فى مصر يلعب (أوزيريس) الدور ذاته .. »

- « (أولاكانيانا) .. القزم و(إنتولو) الذى هو خليط من بشرى وسحلية .. إنها تذكر هذه الأسماء قبل أن تتكلم عن تاريخنا .. لقد كان أسلافنا من (النجونى Nguni) يعيشون فى وسط إفريقيا .. فى أرض يطلقون عليها (إمبو) .. »

هنا بدأت نغمة غناء تتصاعد ببطء ..

- « استقررنا فى هذا الوادى الخصيب .. وكان من بين المستقرين (مالانديلا) .. أنجبت له زوجته ابنين .. أحدهما كان يحمل اسم (زولو) .. زولو معناها (السماء) .. ومن نسله جئنا .. فى العام ١٨٢٤ أقام البريطانيون مركزًا تجاريًّا فى (الناتال) وهو ما صار (ديربان) اليوم .. حاربهم الزولو ببسالة وقوة .. وفى ذلك القرن جاء الزعيم الأسطورى (شاكا Shaka) »

هنا تعالى صياح القوم :

-« شاكا زولو !! »

وضربوا الدروع فى ذات الوقت ضربة واحدة جعلت (علاء) يثب فى الهواء مترين ..

- « .. هو الذى وحد شعوب الزولو بقوته ، وحكم البلاد كلها ، ربما ببعض القسوة ، وقد أغار على القبائل مرارًا ليمتصها فتصير جزءًا من قوته ، صانعًا جيش الزولو الرهيب .. بعدها قتله غيلة أخوه (دينجين) وخلفه فى الحكم .. وفى النهاية استقر الحكم عند (سيتوايو) الذى حارب البريطانيين .. وكانت موقعة إيسندوانا عام ١٨٧٩ التى أباد فيها الزولو ١٢٠٠ بريطانى ، وكانت شجاعة الزولو هى السبب ، بالإضافة إلى خطة فاشلة وضعها قائد البريطانيين لورد (تشيلمز فورد) الذى جزأ قواته .. فكانت هزيمته ساحقة ، ومن هذه اللحظة دخل اسم (شاكا زولو) عالم الغربيين .. وصار يثير الرعب فى قلوبهم .. »

-« شاكا زولو !! »

وضربوا الدروع ضربة واحدة فتجمد الدم فى عروقه ..

كانت على حق .. فمنذ وطأ (علاء) قلب القارة الإفريقية ، وهو يعرف أن الرعب يقترن بثلاثة أسماء : (الماساى) فى كينيا ، (الزولو) فى الناتال (الكيجانى) فى الكونغو ..

- « .. عاد البريطانيون لينتقموا فى معركة (أولوندى) .. فاستسلم الزولو للأقوى .. ولكن تكررت ثوراتهم من حين لآخر .. ثم جاء (البوير) ليسحقوا (الزولو) أو هكذا حسبوا .. وصارت الناتال خليطًا من مستعمرة بريطانية وهولندية .. ثم صارت جزءًا من اتحاد جنوب إفريقيا عام ١٩٦١ .. إلا أن سياسة الأبارتايد والغطرسة الهولندية المعروفة جعلتا البلاد بوتقة تغلى .. حتى عام ١٩٩٤ »

-« شاكا زولو !! »

وضربوا الدروع فى ذات الوقت ضربة واحدة جعلت قلبه ينسى ضربتين ..

أدرك (علاء) أنها لم تعد تترجم .. بل هى تلقى محاضرة تاريخية ..

ونهض مجموعة من الشباب ليمارسوا ما يشبه لعبة التحطيب فى ريف مصر .. إنها الـ (أومشيزا) ..

كانوا نموذجًا للقوة والعنفوان .. أجسامهم الصلبة السوداء مبللة بالعرق فى ضوء اللهب ، بينما المنشدون يرددون :

ـ « عار على الجبان الذى يظل فى كوخه حتى يحترق .. اخرج وقاتل .. هيه هيه ىىىىىى ! »

هل سمع هذه الأغنيـة من قبل ؟ لا يذكر .. لكنه شعر بشىء مألوف عندما ترجمت له الكلمات ..

تقول له :

ـ « إنهم أشرس المقاتلين طرًا .. لا تكسب عداوتهم أبدًا .. كن صديقهم يعطوك كل شىء.»

نهض رجل يضع قناعًا وقد تزين بريش الطيور وراح يرقص بدوره ..

همست (أونوابا) لـ (علاء) :

ـ « هذا هو الطبيب الساحر أو (سانجوما) بلغتنا .. »

همس (علاء) بينما انغناء الشجى يعبث بأعصابه :

ـ « هل تقومون بهذا العرض الفريد كل ليلة ؟ »

ضحكت ، وقالت :

ـ « بل هو من أجلك يا دكتور .. من أجلك فقط ! »

ـ « عار على الجبان الذى يظل فى كوخه حتى يحترق .. اخرج وقاتل .. هيه هيه ىىىىىى ! »

الشباب يتصارعون بالرماح والدروع .. ضربـات مرعبة قويـة جدًّا فلا تتمنـى أبدًا أن تكـون خصمهـم .. الأغنيـة تتصاعد .. ثـم تنخفض فـلا يبقـى إلا صوت دقات خشبية خافتة مستمرة ، كأنها (بطانة) للفقرة القادمة ..

قالت لـ (علاء) ، وهى تنزع حذاءها :

ـ « لا أفعل هذا عادة ، لكنى سأرقص مـن أجلك فقط .. هذه رقصة (لوبولا) .. وتحكى عن تعويـض الأب عـن زواج ابنته .. »

ونهضت لتقف جوار النار .. ثم رفعت ذراعيها وراحت تحركهما حركة رتيبة متواصلة ، كأن الكهربـاء تسـرى

فيهما .. ثم راحت تنساب من مكان لمكان .. بينما أغنية رائعة لا يفهم حرفًا من كلماتها تخرج من بين شفتيها ..

كانت تلبس ثيابًا عصرية على عكس فتية القبيلة الذين كانوا يلبسون زى القبائل البدائى ، لكن هذا لم يمنعها من أن تجيد .. الآن انطلقت القوى من عقالها .. تلاشت الممرضة الهادئة التى كانت تعمل معه فى الصباح ، وصارت كأنها إحدى فتيات القبيلة .. إنها تؤدى حركات كانت تؤديها النسوة أمام (شاكا زولو) من مائتى عام ، وهى تحفظها تمامًا .. العقد الذى أهداه لها يتوهج على صدرها فى ضوء النار ..

من أجلك فقط .. هى أدارت كل هذا الحفل من أجله فقط ، ومن الجلى أنها ذات شأن كبير وسط قريتها .. كل الشباب الذين تصارعوا والذين رقصوا وهى نفسها .. كل هؤلاء فعلوا ذلك من أجله هو ...

لما انتهى الحفل كان (علاء) شبه مخدر .. لا يصدق أنه رأى ما رأى وعاش ما عاش .. هل هذا هو الحاضر

أم أنه قد عاد للوراء مئات الأعوام ؟ لا يريد أن يرحل .. لا يريد أن يفيق ..

قالت له ، وهى تمسك بيده :

ـ « فلتحىّ الزعيم ثم دعنا نرحل .. سوف نصل إلى (سافارى) فى ضوء الفجر .. »

* * *

قالت له :

ـ « أنا أعرف قومى وأفخر بهم .. هذا كل شىء .. »

* * *

كان (علاء) يترنح عندما دخل العنبر فى الصباح ..

لم يكن قد نام دقيقة واحدة ، ولم يفلح كل ما شربه من قهوة فى إعادته لوعيه .. لقد كان يمشى على قطن أو سحاب ، وكانت ردود أفعاله تتأخر دقيقة على الأقل ..

لكنه كان منتشيًا بلا خمر .. وفى ذهنه تتردد الألحان التى سمعها فى تلك الليلة ..

ـ « عار على الجبان الذى يظل فى كوخه حتى يحترق .. اخرج وقاتل .. هيه هيه ىىىىى ! »

إنها تحبه .. لم يعد هناك شك فى ذلك .. لكن لماذا ؟ هى قدمت له الكثير بما فى ذلك دمها ذاته ، لكن ماذا قدم هو لها ؟ لا يعرف ..

لكنه كان سعيدًا منتشيًا ولا يعرف ما يصنع بنفسه ..

« شاكا زولو !! »

فقط عندما جاءت الظهيرة أدرك انه كان سيتصل بـ (برنادت) ولم يفعل .. لقد نسى الأمر تمامًا .. أقنع نفسه أن السبب هو إرهاقه الشديد الذى جعله مبلبل التفكير ..

« شاكا زولو !! »

لكن ..

لماذا يتذكر (برنادت) كطيف شاحب بعيد ؟ يتذكرها بكثير من العسر فعلاً ، ولا يحركه إلا شعور بالواجب .. يجب أن يفعل هذا ولا يريده بهذه الدرجة ..

احمرت عيونكم وتوارى القمر خلف الأشجار .. أرى أن بعض الأطفال قد ناموا ، و(مجودلوا) الصغير قد تكوم كالشىء .. هو مقياس دقيق على أننى أطلت ..

سأتوقف هنا يا أهل قريتى الأعزاء ..

★ ★ ★

الليلة الثامنة

مرحبًا بكم ..

قد مر شهران ونيف الآن على (علاء) فى (الناتال) .. إنه يتأقلم بسرعة لو كنتم قد لاحظتم .. صار مهمًا فى مكان عمله ، وإن ظل بحاجة إلى شيئين : أن يعود إلى وطنه .. وأن يعود إلى تلك القرية قرب (توجيلا فيرى) .. تناقض عجيب لكنه صحيح ..

اتصل بوحدة (سافارى) فى الكاميرون وطلب من السكرتيرة أن توصله بالمدير .. أخيرًا جاء صوت (بارتلبيه) البدين .. أعنى بالبدين صوته طبعًا .. فأوشك (علاء) على أن ينكمش ليتدفق عبر أسلاك الهاتف ..

- « (علاء) .. كيف حالك ؟ »

- « ما زلت حيًا يا سيدى ، وإن كانت البلاد خطرة نوعًا .. »

- « لماذا ؟ لا توجد اضطرابات سياسية .. لقد صارت هذه المنطقة مستقرة »

- « هناك اضطرابات أمنية .. على كل حال متى تستردوننى ؟ »

فكر المدير قليلاً ، ثم قال :

- « يجب أن يحددوا هم هذا ، ثم يوافق المركز الرئيس فى النمسا .. أنا لم أختر لك النفى يا (علاء) .. »

انتهت المكالمة ، فاعتصر السماعة واستجمع أنفاسه ..

الحق أنه لم يكن خائفًا من البلاد .. من المرض .. من العصابات فى الأزقة ..

كان خائفًا من ذاته .. من ذلك الشعور الذى يتنامى هناك بداخله .. إنه مقبل على مصيبة وهو يعرف هذا ويحاول تحاشيها بقدر الإمكان ..

ضغط السماعة على صدره ، وراح يهمس مغمض العينين :

- « سيدى .. أنقذنى أرجوك .. أتوسل إليك أن تفعل .. »

★ ★ ★

كانت تلك المريضة المدعوة (ألونا) ترقد فى الفراش وقد تشبثت بالملاءات بتلك الطريقة المعروفة باسم (Carphology) .. إنها تشعر بأنها تغوص فى الفراش ؛ لذا تحاول أن تتمسك بجانبيه ، وهى علامة أكيدة على دنو الموت ..

ضغطها غير محسوس .. العرق البارد يحتشد على أعلى شفتها .. وتأمل (علاء) كيس البول فوجده شبه خال .. كليتها تلفت أو موشكة على ذلك ..

هكذا صاح مناديًا الممرضة .. هرعت الفتاة التشيكية ذات النمش ، وزادت من تدفق المحلول فى القناة الوريدية .. كانت هناك قناة أخرى تصب مادة (الدوبامين) فى دم المريضة ..

قالت له ، وهى تراقب المحلول :

ـ « نحتاج إلى قياس ضغط الأوردة المركزى CVP .. »

ـ « هذا غير مستحب .. لن نعرضها لأية عملية قد تجلب المزيد من العدوى .. لاحظى أنه لا مناعة لديها على الإطلاق .. »

كان الفراش مبتلاً بسبب شلال الإسهال المتفجر من المريضة .. إسهال (الكربتوسبوريديوزس) الذى لا علاج له .. هذا كائن مسالم يعيش فى أمعائك وأمعائى ولا يستطيع أن يؤذى ذبابة ، لكنه عند مريض الإيدز يتحول إلى طاعون قاتل .. إن الإسهال يفتك بالمريض ويجفف كل منابع الحياة فيه .. تسألوننى من أين لى أن أعرف أشياء كهذه ؟ ألا تملون ؟! الـ (مزى) يعرف كل شىء ويستنتج الباقى .. إننى لم أنل لقب (مزى) بالصدفة ، وإلا لظللت (كوتانجا) إلى الأبد !!

دنا منه الطبيب الألمانى ووقف يرقب المشهد ، ثم دنا من وجه المرأة وسألها بلغتها عن شىء ما فأغمضت عينيها أن نعم .. مد يده وثبت قناع الأكسجين على أنفها ..

ـ « سألتها إن كانت بخير فلم تقو على قول لا .. قالت نعم بعينيها لتخرسنى .. »

من جديد يستعيد (علاء) ذلك الشعور القاسى بأن الموت يحوم حول الفراش .. يتمنى لو قاموا بتدوير الفراش كما فى الأسطورة المجرية ..

قال الألمانى ، وهو ينظر إلى شاشة المرقاب :

ـ « طلبـت مـن (أونوابا) أن تحقنها بمحلول يحوى الـ (دوبـامين) لكنهـا تـأخرت .. فـى كـل مـرة تتـأخر .. لا تؤاخذنى لكنى سأقدم شكوى رسمية .. »

نظر له (علاء) فى تحد ، وقال :

ـ « ما دورى فى أن أؤاخذك أو لا أفعل ؟ »

لم يرد الألمانى .. لم يرد أن يتحول الأمر إلى مشادة ..

هنا أضاف (علاء) :

ـ « بالمناسبة .. أنـا طلبـت منهـا أن تنتظـر قليـلاً .. لو أردت أن تقدم شكوى ، فلأكن أنا من تشكوه .. »

كان هذا كذبًا .. لكنـه فعلهـا بكـامل إرادتـه .. مـا جدوى معاقبـة الممرضـة النشطة وهى لم تـؤذ المريضـة بشـكل واضح ؟ لن يجدى (الدوبامين) فـى شـىء وكلاهمـا يعرف هذا .. تأخيره دقيقة لن يقتـل المريضـة ؛ لأن مرضهـا قـاتل بشهادة كل مراجع الطب .. هم فقط يفعلون ما يجـب عليهم عمله ..

ثم إنه موقن أنها لم تتأخر .. الألمانى يتحرش بها ..

نظر له الألمانى فى ثبات ، وقال :

ـ « طبعًا أنت تقول هذا فقط .. »

هنا اهتاج (علاء) ، فنظر فى تنمر إلى الرجل ، وقال :

ـ « اسمعنى .. لم أعد أتحمل المزيد من هذه التلميحات .. فلننه الأمر معًا خارج الوحدة ! »

نظر له مذهولاً :

ـ « هل تعنى ما تقوله فعلاً ؟ على طريقة رجل الكهف ؟ »

ـ « بل على طريقة الرجال .. »

قال (فرتايمر) ، دون أن ينظر له :

ـ « الرجال المتحضرون لهم طرق أخرى للتسوية .. »

ثم ابتعـد مع الممرضـة التشيكية ، ويبدو أنه شعر بـأن الأمر يدخل مرحلـة الجد الخطير .. جلس (عـلاء) جـوار فراش الأم (ألونـا) شـاعرًا بالحسرة .. مـن المستحيل أن ترى غروب اليوم .. مد يده يربت على يدها السوداء طويلة الأظفار ..

باردة .. باردة .. خائفة .. خائفة ..

هنا شعر بمن يقف جواره ..

التفت للوراء فرأى (أونوابا) .. العقد بارز واضح على صدرها .. العقد الذى أهداه لها .. كانت تنظر فى جدية وحنان إلى المريضة ، ثم قالت له فى حزم :

ـ « من فضلك .. »

وجلست على ذات المقعد .. مدت يديها تعتصر يدى المريضة ..

قال (علاء) :

ـ « لماذا تأخرت فى إعطائها الـ ... »

ـ « ش ش ش ش ! »

قالتها بإصبع على شفتها .. ثم قربت وجهها من المرأة وبدأت تهمس لها .. تهمس لها مقاطع طويلة من لغة الزولو .. تفرك يديها .. تهمس .. ثم يتهدج صوتها فى أغنية طويلة هامسة ..

بدا المنظر لـ (علاء) كأنها تتلو صلاة الموت بجوار فراش المحتضرة ، لكن المرأة تصغى للكلمات باهتمام .. فجأة ! تنفرج شفتاها عن ابتسامة صريحة ..

سأل (أونوابا) بالإنجليزية التى لا تفهمها المريضة ، وهو يرقب هذا المشهد العجيب :

ـ « أصلاة هى ؟ »

قالت (أونوابا) ، وهى تفرك يدى المرأة فى قوة :

ـ « يبيو (نعم) .. أحكى لها ذكريات باسمة من أرض الزولو .. أحكى عن (أنكلانولو) و(مامبلامبو) .. إننى أخفف عنها ، فلا تستقلّ هذا الذى أفعله .. »

أظفار المرأة تنغرس فى كف (أونوابا) .. فجأة ! رأى (علاء) الدم يسيل من موضع الخدوش .. بالله عليك ! خذى الحذر .. أنت تتعاملين مع مريضة إيدز ! صحيح أن دمها هو الخطر لا دمك ، لكن من يضمن ما علق بأظفارها ؟

(أونوابا) ترفع كفها وتقرب الجرح من شفتى المرأة .. تمرر يدها .. هنا بدأت المرأة تهدأ ..

هتف (علاء) ، وهو لا يبعد عينيه عن المشهد :

ـ « ماذا تفعلين ؟ »

ـ « أذكرها بدم الزولو الذى يجرى فى عروقها .. إنها تتحسن .. معنويًا على الأقل .. »

ونهضت وهى تلهث .. وأخرجت منديلاً ورقيًا من جيبها لفت به الجرح ، وقالت ، وهى تبتعد :

ـ « سوف يمنحها هذا ساعات هادئة .. »

لكن (علاء) ظل ينظر إلى العجوز فى ذهول ..

نظرة إلى المرقاب ليدرك أن الأمر ليس معنويًا تمامًا .. ضغط الدم يرتفع .. ونظر إلى كيس البول فوجد عدة قطرات قد احتشدت فى قاعه ..

★ ★ ★

كان جالسًا فى الكافتيريا يلتهم الغداء ، عندما دنت حاملة صينية ووقفت جواره ، ثم سألته :

ـ « هل لى أن أجلس يا دكتور ؟ »

ـ « تعرفين الإجابة .. وسأكون شاكرًا لو ناديتينى بـ (علاء) فى غياب طرف ثالث »

جذبت مقعدًا وجلست جواره .. هذه هى مزية العلاقات هنا .. الكل منهمك غير رائق المزاج .. لن يقضى ألف واحد من الجالسين فى الكافيتريا ساعات يتغامزون ويلمحون .. لو حدث شىء كهذا فى مصر لكانت (فضيحته بجلاجل) ، كما يقول المصريون ..

سألته ، وهى تأكل برشاقة من طبقها :

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لماذا ماذا ؟ »

ـ « لماذا ادعيت أنك من طلب تأخير إعطاء العقار ؟ »

لم يجد ما يقول فظل صامتًا يلتهم الطعام .. لما عرفت أنه لن يرد قالت :

ـ « جيابونجا .. »

ـ « وهل تأخرت فعلاً ؟ »

ـ « فى كل مكان يتهموننى بذلـك .. لكنـى بريئـة .. إنهم يتحرشون بـى لأننـى سوداء ؛ ولأن (الأبارتـايد) مـا زال فى رءوسهم »

عاد يفكر ثم سألها :

ـ « هل استعملت السـحر مـع تلـك المريضـة ؟ سحر الزولـو القديـم أو شـىء مـن هـذا القبيـل ؟ أريـد إجابـة صريحة .. »

قالت فى حزم :

ـ « لا أعطى إلا إجابات صريحـة .. الإجابة هى (لا) .. أنتـم تؤمنـون بالإيحـاء والتنويـم المغناطيسـى والتلقيـن الرجعى الإيجابى .. أنا فعلت هذا بالضبط .. لو فعلـه أحدكم لما اتهمتوه بالسحر .. »

ـ « لكن هذا أدى لمؤشرات إيجابيـة ملموسـة .. لقد تحسنت القراءات .. »

ـ « أنتم تؤمنون بتأثير (البلاسيبو Placebo) .. أقراص من الجيلاتين يبتلعها المريض حاسبًا أنهـا دواء .. وبرغم هذا يشفى .. وقد قال المسيح : يا بنة .. إيمانك قد شفاك »

ثم عبثت فى طبقها قليلاً ، وقالت :

ـ « كل ما حـدث هـو أننى حاولت منحهـا ساعات أهدأ .. هذه من فنون الزولو ، لكنى لا أملك لها الشفاء .. »

ثم ضحكت ، وقالت له :

ـ « لو كنت تريد سهرة أخرى من سهرات الزولو فليكـن هذا غدًا .. ما رأيك ؟ »

★ ★ ★

عندما عادا إلى العنبر بعد الغداء كان المشهد مروعًا ..

عرف (عـلاء) علـى الفـور معنـى المـلاءة والمحفـة الواقفة جوار الفراش ، وعاملـة التنظيف التـى تقف جوار دلو تفوح منه رائحة (الجلوتارالدهايد) ..

دنا من الجثة ، فقالت الممرضة الفلبينية :

ـ « حدث هذا خلال عشر دقائق .. حاول د. (ماكفادين) بلا جدوى .. »

سمع (علاء) صوت شهقات فالتفت إلى الوراء .. كانت (أونوابا) تشهق بلا توقف .. بالأحرى كانت تبكى وهى تنظر إلى الجثة ..

ـ « لقد تأخرت كثيرًا ! تأخرت كثيرًا ! ما كان يجب أن أضيع الوقت فى الغداء .. »

وضع (علاء) يده على يدها ، وهتف :

ـ « ماذا كان بوسعك عمله ؟ أنت تعرفين أنها كانت ميتة تمشى على قدمين ! أنت بنفسك قلت إنك لم تفعلى إلا تقديم عون معنوى لها .. »

ـ « كان بوسعى أن أساعدها أكثر .. لقد تأخرت .. تأخرت .. »

ثم انطلقت مبتعدة وهى تدفن وجهها فى كفيها .. غزال إفريقى يفر إلى الدغل ..

وتوقف (علاء) متصلبًا .. ينظر للجثة .. للدلو .. للعاملة .. للممرضة ..

إن القصة غريبة .. غريبة بكل تأكيد ..

الآن أرى البعض يتثاءب .. العيون احمرت وإنه لمشهد غريب فى وجوه سود .. البرد .. دخان النار .. السهر .. كل هذا جعل عيونكم كجروح متقرحة ، وإننى لأقترح أن أستكمل القصة غدًا ..

★ ★ ★

الليلة التاسعة

مرحبًا بكم ..

الآن أجلس فى مجلسى المفضل على جذع السنديانة العجوز .. مرتفعًا عن الأرض ، فأراكم جميعًا ترفعون الرءوس لأعلى مترقبين ..

سأحكى لكم الليلة عن مصرى يدعى (محمود لطفى) ..

كان (علاء) يتناول الغداء فى أحد مطاعم (ديربان) .. هناك مطعم هندى لا بأس به ، وقد اعتاد أن يتردد عليه كلما سمح له الوقت بذلك .. يطلب عشرات الأصناف من النادل ، فيهز هذا رأسه فى ذكاء مرددًا عشرات المرات :

ـ « جى .. آتشا .. آتشا .. »

ثم ينصرف ليعود بطبق الأرز بالكارى ومعه مانجو مخلل ولا شىء سواهما ! وقد تعلم (علاء) أن يستسلم فالأرز لذيذ على كل حال ..

كان يلتهم الأرز بالكارى ، عندما نظر إلى المنضدة المجاورة فرأى تلك الملامح .. الشعر المجعد ليس لدرجة الأفارقة واللون القمحى والعين الخضراء ليس لدرجة الأوروبيين .. ثم سمع الرجل يكلم النادل الهندى فعرف اللهجة .. لا يمكن أن تخطئ طريقة نطق المصريين للإنجليزية أبدًا .. تعرفها من بين ألف لهجة ..

نظر للرجل ونظر له الرجل .. لحظة تساؤل ، ثم سأله (علاء) بالعربية :

ـ « من أين ؟ »

قال الرجل ضاحكًا :

ـ « من المنصورة طبعًا .. هل تتصور مكانًا آخر ؟! »

هذه اللحظة المرجفة عندما يقابل المصرى مصريًا آخر فى الغربة .. وفى (الناتال) بالذات .. وهكذا صارت المنضدتان منضدة واحدة وراحا يثرثران .. الرجل ظريف فعلاً .. وعرف (علاء) أنه ضابط يتبع قوات حفظ السلام فى الإقليم .. فقط كان بثيابه المدنية ..

ـ « هناك أكثر من مصرى معى فى هذه القوة .. لكنهم لم يأتوا الليلة .. كانوا سيسرون لرؤيتك »

قضى الشابان يومًا كاملاً فى التجوال .. شاكسا كل بائع عرفاه ، ومارسا الهواية المصرية فى الفصال مع انعدام نية الشراء .. مرحا كثيرًا وثرثرا كثيرًا ..

ـ « شباب (شبرا) هم الجدعان فقط فى مصر .. »

ـ « أصغر شاب فى المنصورة يلتهم منكم خمسة على الإفطار .. »

وعندما غربت الشمس عرف (علاء) أنه على الأرجح لن يلقاه ثانية .. وهكذا تحركت عقدة (جار القطار) الشهيرة .. عندما تحكى أدق أسرارك لشخص لا تعرفه لمجرد أنك لن تلقاه ثانية ..

كانا يقفان عند الميناء يراقبان الونش العملاق يرفع حاويات عملاقة بدورها .. وحوش تمارس حياتها المرعبة فى ضوء الغروب ..

عندما قال (علاء) حالمًا :

ـ « أريدها .. »

قالها ببساطة ، لكن روحه كانت تتكلم ، لو كان للروح صوت ..

نظر له (محمود) ولم يتكلم .. لقد عرف الآن كل شىء عن القصة بأكملها ، كأنه كان يجلس حول هذه السنديانة العجوز معنا ..

قال (علاء) من جديد :

ـ « يعلم الله أنى قاومت هذا الشعور مرارًا .. لكنه سحقتنى .. »

ثم تحسس معصمه ، وهمس :

ـ « كل خلية هنا تحمل اسمها .. »

ضربه (محمود) بقبضته ، وقال مقلدًا صديق البطل فى الأفلام العربية السخيفة :

ـ « تبقى وقعت يا بطل .. ها ها ها ! »

لكن (علاء) لم يتكلم .. ولم ترق له الدعابة ..

فجأة ! انفجر فى البكاء ..

جلس على الأرض المتسخة وترك ساقيه تتدليان خارج الرصيف فوق سطح الماء ، وراح ينشج كطفل فى الخامسة تخلت عنه أمه .. بينما (محمود) يصيح به :

ـ « بسم الله الرحمن الرحيم ! مـاذا دهـاك ؟ كنت بخير حال .. هل جننت يا صاحبى ؟ »

★ ★ ★

قال (علاء) لـه ، وهمـا يمشيان فى شوارع المدينـة التى بدأ الظلام يغزوها :

ـ « أتذكـر أغنيـة قديمـة لـ (إيزاك هايز Isaac Hayes) يقول فيها : لو كان حبك خطأ فلا أريد أن أكـون علـى صواب .. »

كان (محمود) قد اكتسب جدية واضحـة .. يستطيع أن يكون مهرجًا إذا أراد ، لكنه كذلـك يستطيع أن يكون جادًا كالقبر .. قال له :

ـ « بصرف النظر عن الرومانسية الزائدة ، فإن وضعك خطير وحساس فعلاً .. لا تبدو لى مراهقًا يا صاحبى ، فهل أنت مقدر لحساسية الموضوع ؟ »

ـ « أعتقد هذا .. »

ـ « هل تخليت عن حب زوجتك ؟ تلك الكندية ؟ »

ـ « لا .. ما زلت أحمل لها المشاعر ذاتها .. كنت أحسب الحب كيانًا لا ينقسم ، فإذا منحت نصف حبك لامرأتين نـالت كل منهما نصفه .. الآن أعتقد أنه يتناسخ كالأميبا .. كل واحدة تظفر بالقدر ذاته .. »

قال (محمود) :

ـ « هذا ما تعتقـده أنـت .. تذكـر أنـك لـن تعدل .. وهذا يقودنا لسؤال آخر .. طبعًا أنت راغب فى الزواج .. »

ـ « لم أتعلم سبيلاً آخر للظفر بمن أحب .. »

ـ « جميل .. جميل .. إذن لماذا تعذب نفسك لهذا الحـد ؟ لا تكن كبنى إسرائيل الذين ضيقوا على أنفسهم فضيق الله عليهم .. من حقك أن تتزوج اثنتين .. »

توقف (علاء) وكأنه يعرف هذا للمرة الأولى ..

زوجتـان ! لم يتصور هذا قط لكن هذا يبدو هو الحل الوحيد ..

ثم توقف ..

ـ « ربما كان هذا من حقى ، لكن (برنادت) لن ترى هذا .. سوف تطلب الطلاق وتناله .. (أونوايا) لن تمانع .. مجتمعها يسمح بذلك .. »

بدا على (محمود) أنه يعيد حساب الأمور .. ثم قال وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « هذه نقطة .. ثم إنك تزيد متاعبك بشكل غير مسبوق .. لو تخيلنا أن هذا حدث فماذا عن زوجتين أجنبيتين ؟ زوجة كندية من ثقافة مختلفة تمامًا ، وزوجة من الزولو ترقص حول النار وإخوتها يتبارزون بالرماح .. هل تفهم المأزق ؟ »

شهق (علاء) كأنما يحتوى (ديربان) كلها فى صدره ، وقال :

ـ « إذن ماذا أفعل ؟ »

ـ « تختار واحدة منهما .. هذا حل .. تنسى الأمر برمته وهذا حل آخر .. فقط كف عن الرثاء لنفسك لأنك لم تملك

العالم .. كم من فتاة حسناء عرفت أنها لن تكون لك ؟ كم من قصر منيف عرفت أنك لن تطأه بقدميك أبدًا ؟ كم من سيارة فاخرة رأيتها وعرفت أنك لن تملك ثمن إطار واحد منها ؟ الأمر لا يختلف يا صاحبى .. مجرد فقرة جديدة تضاف لقائمة الحرمان التى يخفيها كل منا فى صدره .. لهذا نحلم بالجنة .. لهذا الجنة ثمينة جدًا عسيرة جدًا .. »

وساد صمت رهيب ..

وعند موقف سيارات (المينى باص) الذى يقله إلى (سافارى) تعانق الصديقان ، وهما لا يعرفان إن كانا يلتقيان ثانية أم لا ، لكنهما تبادلا أرقام الهاتف والعناوين هنا وفى مصر ..

ركب (علاء) السيارة وهو يشعر بالراحة التى يشعر بها مريض القرحة المعدية بعدما يفرغ معدته .. المرض شديد موجود ، لكنها راحة لا تنكر ...

ـ « (محمود لطفى) .. »

قالها مغمض العينين فى السيارة .. لم يكن يريـد أن ينسى الاسم ..

ليتنى جئت هنا وقابلتك منذ أعوام يا (أونوابا) ..

متأخرة .. دائمًا متأخرة كما يقولون عنك ...

★ ★ ★

لو كان حبك خطأ فلا أريد أن أكون على صواب ..

★ ★ ★

ـ « (برنادت) .. كيف حالك ؟ »

جاء صوتها عبر الأسلاك و الفيافى و الأدغال :

ـ « بخير .. بخير .. كيف حالك أنت ؟ »

استجمع أنفاسه وذلك الدوار يعصف به .. قال بصوت مبحوح :

ـ « هناك شىء مهم يجب أن تعرفيه .. »

ساد صمت .. العملات تتناقص بسرعة جهنمية ، ثم سألته :

ـ « ماذا ؟ »

ـ « شىء يتعلق بنا .. إن الحياة لن تعود أبدًا كما كانت و ... »

ـ « (علاء) .. ماذا هنالك ؟ كف عن المقدمات .. »

الأرض تميد به .. ينظر إلى ردهة المستشفى حيث علقت كابينة الهاتف .. أناس يروحون ويجيئون .. لماذا لا يتوقف العالم ؟ لماذا لا يلتفون حوله فى رعب ينتظرون نتيجة المحادثة ؟ أنتم هنا يا حمقى لأننى موجود .. وجودكم مستمد من وعيى .. ألم تسمعوا عن السوليبسزم solipsism ؟

ـ « الحكاية هى .. »

نبضه يتلاشى .. ذلك الصفير .. إنه سيفقد وعيه حتمًا ..

ـ « الحكاية هى أننى أصبت فى حادث سطو .. »

كان بحاجة لاعتراف مخيف ، فلم يجد أكثر من هذا أمنًا .. إنه عاجز عن قول ما كان يريد قوله ..

وراح يحكى لها تفاصيل حادث السطو ولم يذكر شيئًا عن الدم الذى تلقاه ..

★ ★ ★

أعتقد أنكم تفضلون أن أستكمل القصة غدًا ، فالليل قد توغل ...

★ ★ ★

الليلة العاشرة

مرحبًا بكم ..

هذه بداية ليلة أخرى نستكمل فيها قصتنا مع ذلك الطبيب الشاب فى (الناتال) ..

طبيبنا الشاب يواصل جولته على الأسرة مع طبيب آخر و(ماكفادين) رئيس الوحدة الشاب الأخرق .. إن الأخير رئيسه لكنه ليس فخورًا بهذا ولا يحاول بأى شكل أن يستعمل سلطته هذه ..

(أونوابا) ليست هنا .. يبدو أنها مكلفة بعمل ما فى الوحدة .. معهم الممرض المترجم (بوثليزى) الذى يعانى حالة عنصرية مضادة متقدمة : كل ما ليس أسود مقزز ومنحط على الأرجح .. كان (ماكفادين) قد قال لـ (علاء) :

- « إنه مريح ما لم تصطدم به .. خذ منه ما تريد ولا تحاول أن تتعالى عليه أو تهينه ؛ لأن هؤلاء الزولو حارو الدماء .. لا تندهش كثيرًا لو غرس مدية فى عنقك »

عندما انتهى المرور قال (مكفادين) لـ (عـلاء) ، وهو يقتاده من يده إلى تلك الغرفة الصغيرة التى يجلس فيها :

ـ « هناك أمور أرغب فى أن نناقشها معًا .. »

وجف قلب (علاء) لهذه المقدمـة .. من المستحيل أن يفتح معه ذات الموضوع ..

لكن الأسكتلندى قال :

ـ « تلك الفتاة .. (أونوابا) .. »

نهض (علاء) فى عصبية كأنه أطلق من عقاله ، وقال :

ـ « فى الحقيقة كانت فكرتى عن المجتمع الغربى هى أنه مجتمـع (اهتـم بشئونك الخاصــة Mind your own business) و(عش ودع غيرك يعيـش) .. لكـن يبـدو أننـى كنت علـى خطـأ .. أشـعر أن هـذه الوحـدة متفرغـة لى بالكامل .. أعتقد أن ما يجب أن أقوله هو : هذه حياتى »

قال الأسكتلندى ، وقد احمر وجهه الذى كان أحمر أصلاً :

ـ « ليس كمـا تتصور .. لكنى وجدت أنه من الخير لـك أن تعرف بعض الخلفيات .. إن (بوثليزى) لديه ما يقولـه لك ، لكنى أفضل أن تجلس معه على انفراد »

كان هذا آخر شىء يريده (علاء) ، فهو لا يطيق الرجل ولا يصدقه ..

لكنه شعر بأنه يريد أن يسمع ..

★ ★ ★

دخل الممرض المتأنق ليجلس أمام المكتب ، وقال لـ (علاء) :

ـ « أكره أن أتكلم فى حق مواطنة من قومى ، لكن أكـره أكثر أن يضار أحد بسببها .. »

نظر له (علاء) ولم يتكلم .. كان يشـعر بـأن الأمـر كلـه مبتذل .. الأمر صـار مشـاعًا سوقيًا .. يُدعى له الممرضون ويتنـاقش فيه الأطبـاء .. ربمـا يقـف النـاس فـى الطرقـات يتحدثون عن الأحمق الذى يحب ..

قال الممرض :

ـ « أنت لست من (الزولو) »

قالها فى اشمئزاز ، كأنه يقول (أنت لست بشريًا) ..

ـ « لهـذا لا تعـرف أن اسـم (أونوابا) غيـر شـائع بين الزولو .. »

فكر (علاء) .. بالعكس .. الاسم إفريقى جدًا .. لكن هذا ليس عيبًا على كل حال ..

أردف الممرض ، وهو يشعل لفافة تبغ برغم أن هذا يحدث على بعد أمتار من العنبر :

ـ « (أونوابا) عند (الزولو) معناها (الحرباء) !! »

الحرباء !

« هناك حرباء تزور أحلامى وتمط لسانها لتبتلعك .. »

« هناك حرباء تتلون بلون الدم ثم تسود ببطء .. لسانها يخرج ليلتف حول عنقه ثم يعود .. »

لم تكن هذه أول مرة يذكر فيها اسم الحرباء .. إن هذا عجيب ..

قال (علاء) فى برود :

ـ « اسم غير معتاد .. لكن لا أرى أن هذا ممنوع .. لو تخيلنا أن رجلاً غربيًا يُدعى (كاميليون **Chameleon**) فلن نندهش كثيرًا »

قال الممرض بلهجة ثابتة :

ـ « ألم ترها دومًا تأتى متأخرة بعد الموت ؟ ألم ترها تولول ، وتقول إنها تأخرت مرارًا ؟ »

كان هذا غريبًا ، فأجاب (علاء) موهنًا :

ـ « بلى .. هل لهذا معنى ما ؟ »

ـ « نحن الزولو نتهيبها ونبتعد عنها .. فى قريتها يجلون شأنها .. لكننا نؤمن بأن الفتاة التى تحمل هذا الاسم ، وتأتى متأخرة عن موعد الموت هى فى الحقيقة (أونوابا) .. الحرباء السماوية .. التى أرسلتها السماء للبشر كى تمنحهم الخلود .. لكنها تأخرت بسبب بطئها الشديد عن الذهاب لهم ، لهذا صار البشر فانين يموتون طيلة الوقت ، ولهذا يتبدل لون الحرباء العادية ؛ لأنها تنعى تأخر (أونوابا) فى إنقاذ البشر .. »(*)

وكان عقل (علاء) قد أخرج شريط الذكريات ودسه فى آلة العرض ..

★ ★ ★

(*) أسطورة موجودة فعلاً ... فلنتذكر أن كل حرف يذكر فى (سافارى) حقيقى ما لم نقل العكس ..

« لقد تأخرت كثيرًا ! تأخرت كثيرًا ! ما كان يجب أن أضيع الوقت فى الغداء .. »

« طلبت من (أونوابا) أن تحقنها بمحلول يحوى الـ (دوبامين) لكنها تأخرت .. فى كل مرة تتأخر .. لا تؤاخذنى لكنى سأقدم شكوى رسمية .. »

« هذه التحف يجيد الزولو صنعها .. لكن هؤلاء النسوة اعتدن أن يضاعفن الثمن ثلاث مرات عندما يرين سائحًا مثلك .. قالت إننى تأخرت لكنى أصررت على السعر الحقيقى »

« (أونوابا) .. هلا جئت هنا ؟ لقد تأخرت فى أخذ هذه العينة »

« طلبت وتأخرت فى التنفيذ .. هى لم تعد تنفذ إلا تعليمات شخص واحد ! »

« آسفة لأننى تأخرت عليك .. كالعادة تأخرت .. »

« تتهمنى بأننى تأخرت فى تسلم الوردية .. وهذا جعل أحد المرضى يلفظ أنفاسه .. دائمًا تتهمنى بالتأخير .. »

★ ★ ★

قال له (علاء) ، وهو يشعر بالحيرة :

ـ « ليكن .. ما الخطر فى هذا حتى لو صح ؟ »

قال المترجم ، وهو ينفض غبارًا وهميًا عن كتف قميصه :

ـ « أنت رأيت كيف تعامل المرضى .. رأيت كيف أعادت المريضة لقواها ببضع همسات وقطرات من دمها .. أنت رأيت كيف سحرك دمها .. رأيت قريتها .. أنا أعلم هذا كله .. هؤلاء قوم من السحرة واللصوص .. إنها ممرضة بارعة نشطة ولم يستطع أحد قط أن يثبت موضوع تأخرها بشكل رسمى ، ولهذا لا يصدق الأطباء هنا حرفًا من كلامى .. لكننا معشر الزولو نهابها ونهاب قريتها ؛ لأننا نعرف معنى أن تحمل فتاة اسم (أونوابا) .. أهلها كانوا يعرفون معنى الاسم وبرغم هذا استخدموه .. فما معنى هذا ؟ فى قانوننا غير المكتوب تأتى ألف (أونوابا) لكن علينا أن نتحاشاهن جميعًا .. »

ـ « والسبب ؟ يبدو أنها لا تفعل شيئًا إلا الندم .. »

ـ « إنها تبحث عن زوج فى كل مرة .. ونعتقد نحن الزولو أن زوجها يقع فريسة ما يدعى (توكيلوش) ، الذى يخنقه حتى الموت .. لاحظ أن الزولو لا ينامون على الأرض أبدًا

بل على لوح خشبى ترفعه قوالب قرميد .. حتى لا ينام (توكيلوش) فوقهم .. »

تذكر الشاب أسطورة مماثلة فى الغرب هى أسطورة (الجاثوم incubus) ، فقال فى حيرة :

ـ « (توكيلوش) ؟ زوجها سيموت على يد هذا الـ (توكيلوش) ؟ »

ـ « هذا محتوم .. وبرغم إرادتها .. »

ثم دفن المترجم لفافة تبغه تحت حذائه ، لأنه لم تكن هناك مطفأة ، ثم التقط العقب وكوره بين أنامله ، وقال :

ـ « لك أن تصدق أو لا تصدق .. لكن لن يقال إن (بوثليزى) الشهم ترك شابًا يمضى إلى حتفه .. »

ثم نهض ..

★ ★ ★

السخف بعينه ..

لا ينكر (علاء) هذا .. لكنه فى الوقت ذاته يفسر أشياء كثيرة ..

صدى المحادثات السابقة يتردد فى ذهنه .. الحقيقة أنه أحب أن يصدق هذا .. سوف يبرر له هذا ذلك الحب الحارق .. الحب القاتل لواحدة غير (برنادت) ..

إنه السحر .. لقد غاب عن وعيه مرارًا من قبل .. لا يشعر بأنه مسحور هذه المرة ، لكن هذا هو التفسير الوحيد ..

كان غارقًا فى هذه الخواطر عندما رآها قادمة من نهاية الردهة .. الغزال الرشيق عائدًا من الدغل ..

تراه فيشرق وجهها ، وتهتف :

ـ « ساكوبونًا دكتور ! »

فيرد فى برود بتحية مماثلة .. دمك فى دمى .. هل هى شهامة خالصة أم أن فرصة الاستحواذ علىَّ جاءتك من غير موعد ؟

« الآن انطلقت القوى من عقالها .. تلاشت الممرضة الهادئة التى كانت تعمل معه فى الصباح ، وصارت كأنها إحدى فتيات القبيلة .. إنها تؤدى حركات كانت تؤديها النسوة أمام (شاكا زولو) من مائتى عام ، وهى تحفظها تمامًا .. العقد الذى أهداه لها يتوهج على صدرها فى ضوء النار .. »

« من أجلك فقط .. هى أدارت كل هذا الحفل من أجله فقط ، ومن الجلى أنها ذات شأن كبير وسط قريتها .. كل

الشباب الذين تصارعوا والذين رقصوا وهى نفسها .. كل هؤلاء فعلوا ذلك من أجله هو .. »

« عار على الجبان الذى يظل فى كوخه حتى يحترق .. اخرج وقاتل .. هيه هيه ىىىىى ! »

السخف بعينه .. كل هذا الهراء عن الحرباء التى تأخرت .. هو السخف بعينه ..

هو يعرف هذا ..

عندما كادت تبتعد استوقفها بأن أمسك معصمها .. نظرت له مندهشة ، فقال لها فى ثبات :

- « (أونوابا) .. هل تقبلين الزواج منى ؟ »

★ ★ ★

احمرت العيون وكساها الزجاج ، فصار على أن أصمت .. وصمتًا سأفعل ..

لا تنسوا أن تأتوا هنا بعد الغروب ؛ لأننى لن أحكى ما فاتكم ثانية ..

من يدرى ؟ عساها تكون الليلة الأخيرة ..

★ ★ ★

الليلة الحادية عشرة

مرحبًا بكم ..

للإنصاف يجب أن نقول إن الفتاة بوغتت بهذا الطلب .. اتسعت عيناها وارتجفت شفتها السفلى ، ثم انطلقت لا تلوى على شىء .. أما هو فقد شعر بأنه مسن .. مسن بالفعل ..

عاد يمارس عمله شاعرًا بأنه لا يعرف ما يعتقده حقًا ..

هل هو مجرد زوج (زائغ العين) ؟ يصعب عليه أن يرى نفسه كذلك ، لكن خطايانا تختلف دومًا عن خطايا الآخرين .. لو سرقنا أو قتلنا لوجدنا مبررات كافية تبرر لنا هذا أمام أنفسنا .. هل هو مسحور ؟ لا يعتقد .. إنه يعرف أنه يملك كامل إرادته .. لم يحمل نفسه أكثر من طاقتها؟ ربما واحدة لا تكفى فعلاً .. ما الجريمة فى أن تستعمل حقًا أباحه الله لك ؟ لماذا نضيق على أنفسنا ؟ لقد أرهق (أبو العلاء المعرى) نفسه فى اللزوميات بينما لم يكن لها

مبرر .. لكنه علـى الأقل كـان يبرهن عن سيطرته التامـة على اللغة العربية ، فماذا تحاول إثباته أنت ؟

فقط هو يرى وجـه (برنـادت) فـى لحظـة حزنهـا .. ووجهها يشطر فؤاده إلى نصفين ..

إنه مثقل الضمير بحق .. مثقل كأنـه قتل أطفـال مدرسـة ابتدائية كاملة .. .

★ ★ ★

فى قريتها من جديد ..

جلس يراقب الفتية يتصارعون بالرمـاح .. بعدمـا انتهـوا من الأومشيزا .. هذه المرة كـانوا يحكون قصـة (شـاكا زولو) الذى خانه أخوه (دينجين) ..

تجلس جواره .. تمد يدها فى طبق يحوى مجموعـة من البذور حلوة المذاق وتناوله بعضـها .. ثم ضحكت ودست إحداها بين شفتيه ..

نظيفـة .. لطيفـة .. رقيقـة .. كيف يمكن أن يعتقد يومًا أنها ساحرة ؟

سألها ، وهو يتأمل وجهها فى تدقيق :

ـ « هذه الكلمات التى تقولينها للمرضى .. هل هـى نـوع من السحر ؟ »

راحت تعبث فى الطبق بأناملها ، ثم قالت :

ـ « اسمع .. هذا الجزء يقلقك بشكل خاص .. سأقول لك بوضوح إنه ليس سحرًا .. إنه تراث متوارث منـذ أجيـال .. فكر فـى الأمـر كنـوع مـن التنويم المغناطيسـى .. هذا كـل شىء .. يجب أن تصدقنـى .. أنـا لست سـاحرة .. أنـا فقط مقنعة جدًا وأستعمل تراث جدودى جيدًا . »

مقنعة جدًا ! من الوغد الذى زعم العكس ؟

ـ « لماذا اختاروا لك اسمًا مشتقًّا من الحرباء ؟ »

نظرت له فى صمت ..

ثم قالت ، وهى تعيد العبث فى الطبق :

ـ « كان هذا نـذرًا قدمـه أبـى لـ (أنكلانكولـو) .. نحـن لا نستعمل هـذا الاسـم أبـدًا ، لكـن أبـى صـار مجبـرًا .. بالمناسبة .. واضح أنك أجريت الكثير من الأبحاث عنى .. »

- « لم لا ؟ ما دمت أتكلم عن زواج ؟ »

- « إذن لا تصدق كل شىء يقال لك .. هناك من يكرهنى ، لأنه جاء من قرية تعادى قريتنا .. هذا المدعو (بوثليزى) على سبيل المثال .. دعك من البوير ؛ لأن كراهيتهم مفهومة .. »

ثم نظرت فى عينيه ، وقالت :

- « هو (بوثليزى) .. أليس كذلك ؟ لا بد لمن يختلق قصة كهذه أن يكون من الزولو .. »

- « أية قصة ؟ »

- « ما دمت تعرف موضوع الحرباء ، فأنت تعرف موضوع الموت والخلود .. »

ثم عادت إلى الصمت ..

نظر (علاء) إلى ساعته فوجد أن الوقت قد تأخر .. لا يريد قضاء يوم آخر ثملاً من تأثير السهر .. هكذا قرر أن يسألها السؤال الأخير قبل أن يرحلا :

- « لم تردى بالإيجاب على موضوع الزواج .. »

- « القرار صعب فأنت متزوج يا دكتور »

- « يا (علاء) .. »

- « وزوجتك طاهرة الذيل يا (علاء) وأنت تحبها .. بالنسبة لنا لا مانع من أن أكون زوجة ثانية .. نحن ننظر لهذه الأمور بشكل مختلف ؛ لأن هذا يعنى أن الأعباء توزع على اثنتين .. لكنى أفكر فى تلك البائسة التى ستفقدك لمجرد أننى موجودة .. »

ثم نهضت ونفضت ثوبها ، وقالت :

- « لن أقبل إلا إذا قالت لى هاتفيًا بلغة واضحة أنها موافقة ! »

★ ★ ★

ظل يتقلب فى الفراش حتى الصباح .. واضح أن هذا سيكون يومًا أسود آخر .. لكنه لا يجسر على أن يخبر (برنادت) .. ماذا يقول لها ؟

نهض من النوم شاعرًا بأنه كان فى حلبة مصارعة يتلقى ضربات الأحذية .. لو كان هذا شكل من يصحون من النوم

فالنوم اختراع مؤذ .. لقد كان أكثر نشاطًا عندما دخل الفراش .. وتذكر أستاذه المصرى الذى كان يقول : كل الأمراض حتى السرطان ينهض فيها المريض من النوم أحسن حالاً .. ما عدا مرضًا واحدًا هو الاكتئاب ..

كان هذا قبل أن يصف العلم مرضًا جديدًا هو اختناق النوم Sleep Apnea ..

هكذا ظل يعمل فى الوحدة وهو لا يكف عن سرقة أقداح القهوة أو ابتلاع الأسبيرين .. من سوء طالعه أن اليوم طويل جدًا ..

قال له (مكفادين) ، وهو يربت على ظهره :

- « أنت فى ألعن حال .. لولا نقص الأطباء اليوم لطلبت منك أن تأخذ إجازة باقى اليوم .. لكن ما باليد حيلة .. »

كن مرهقًا فبهذا يغدو اليوم أطول وتتراكم الحالات وتقع أحداث لا تقع كل يوم .. هى قاعدة لا تخيب ..

وعند المساء فرغ من عمله ، فمشى لا يدرى كيف تحمله ساقاه نحو المسكن .. لا عشاء .. لا يستطيع ...

كان مضطرًا للمرور أمام مدخل الوحدة الرئيس للذهاب للمسكن كما فى كل وحدة (سافارى) فى كل مكان .. عند مدخل الوحدة رأى سيارة الإسعاف وزحامًا .. .

كان عدد من الممرضين أكثر من اللازم يحتشد هناك .. والمحفة تنزل .. ثم رأى فى الضوء الخافت الراقد عليها ، والذى تحول وجهه إلى عجين ..

إنه (بوثليزى) .. الممرض الذى لا يطيق البيض إياه !

شق الزحام ليقترب منه .. فرأى بين المتزاحمين طبيب طوارئ أسبانيًا يعرفه .. سأله عما حدث فقال الأسبانى بالإنجليزية الرديئة ، وهو يضع أنامله على نبض الممرض :

- « لا نعرف .. وجدوه بهذا الحال قرب الوحدة .. إنه فى غيبوبة ولا أستبعد أن يوجد شرخ فى قاع الجمجمة »

نظر (علاء) إلى الوجه الذى أحاط اللون الأسود بعينيه ورأى السائل الرائق يتدفق من الأذنين وفتحة الأنف .. لا يحتاج الأمر إلى أشعة مقطعية .. هذا شرخ فى قاع الجمجمة فعلاً ..

وسرعان ما تحرك المشهد الحزين إلى الداخل ..

لم يجد نفعًا للحاق بهم .. إنـه مرهق جدًا وسوف يزيد متاعبهم ، وهم أكفاء جدًا لن يحتاجوا لعونِه ..

هكذا صعد إلـى غرفتـه وبدل ثيابـه وهـو يدندن بصوت خافت :

ــ « عار على الجبـان الـذى يظـل فـى كوخـه حتـى يحترق .. اخرج وقاتل .. هيه هيه ىىىىىى ! »

كان مواظبًا على الصلاة كما نعرف عنـه ؛ لذا حاول أن يصلى واقفًا فلم يستطع .. اتجـه إلى المنضـدة وصلى جالسًا .. دعا الله أن يقيله من هذه الوهدة النفسـية ، وبعد دقيقة كان فى الفراش الذى يعلو ويهبط ..

يعلو ويهبط .. يعلو و .. ..

فجأة هب من النوم مذعورًا .. (بوثليزى) ؟ لمـاذا هو بالذات ؟ ..



ــ « إذن لا تصدق كل شـىء يقـال لـك .. هنـاك مـن يكرهنـى لأنــه مـن قريـة تعـادى قريتنـا .. هـذا المدعـو (بوثليزى) على سبيل المثال .. »

ثم نظرت فى عينيه ، وقالت :

ــ « هو (بوثليزى) .. أليـس كذلـك ؟ لا بد لمن يختلق قصة كهذه أن يكون من الزولو .. »

★ ★ ★

انتقام المرأة الحرباء لا يتأخر ..

فى الصباح وجدها تقف جـوار فراش مريض تركب لـه المحلول .. رأته فهتفت فى مرح :

ــ « ساكوبونًا دكتور ! لقـد تـأخرت فـى تركيب المحلول لكنى لم أتأخر كثيرًا »

لم يقل شيئًا .. فقط أشـار إلـى المكتب فـى نهايـة العنبر كى تلحق بـه .. لـم يكـن (مكافادين) هنـا لحسـن الحظ .. هكذا اتجها هناك ..

نظرت له فى قلق متسائلة عما هنالك ، فقال :

ـ « (بوثليزى) .. إنـه فـى العنايــة المركـزة .. ربمـا مات .. وجدوه وقد تحول إلى عجين قرب الوحدة .. »

عضت شفتها السفلى فى ألم ، وهتفت :

ـ « يا للحسرة ! كيف حدث هذا ؟ »

قال ضاغطًا على كلماته :

ـ « أنت أدرى .. أول مـن أمس قلت إنه يعاديك ويلصق بك الاتهامات .. أمس يجدونه وقد تحول إلى كيلو من اللحم المفروم .. فقط قولـى لـى .. هل تحرش بـه بلطجيـة أم أن سحر المرأة الحرباء قوى لهذا الحد ؟ »

اتسعت عيناها رعبًا ، فهتف :

ـ « لا تقولـى إنهـا صدفـة مـن فضلـك .. لـن أتحمـل أكثر .. »

ـ « ولماذا أفعل هذا ؟ »

ـ « لأنه يلصق بك الإشاعات ويتهمك بالسحر .. أنت قلت هذا .. ربمـا كـان هـذا يعطـل زواج (أونوابـا) مـن الأحمق التالى »

قالت فى تحد :

ـ « أنت عرضت على الزواج وأنا طلبت منك التـأجيل .. لم أكن أنا بل أنت .. »

ـ « ربما كان هذا مجرد إتقان للدور .. »

نهضت ، وقالت فى حزم :

ـ « أنت جننت يا دكتور .. واغفر لى وقاحتى .. »

واستدارت مغادرة الغرفة ..

لم يكن متـأكدًا مـن شـىء .. إلا شيئًا واحدًا لـو شـئنا الدقة : لقد خسرها للأبد ..

★ ★ ★

الشاب (محمود لطفى) مع صديقيه (عماد) و(أشرف) يجوبون شوارع (ديربان) ليلاً .. الثلاثة من المنصورة ، والثلاثة من قوات حفظ السلام .. صدفة غريبة قربت بينهـم كثيرًا .. لكنهم الليلة ليسوا فى العمل ؛ لذا يجوبون المدينة بثيابهم المدنية ..

كان يحكى لهم عن الطبيب المصرى الشاب الذى قابله منذ أيام هنا ، والذى يعانى مشكلة غريبة من نوعها ..

ـ « ربما نلقاه هذه الليلة .. إنه يعمل فى هيئة طبية .. نسيت اسمها .. اسم له علاقة بالوحوش .. لم أسمع عنها قط من قبل .. لقد جلس على رصيف الميناء وراح يبكى كالأطفال »

كان هذا غريبًا بالنسبة لـ (أشرف) .. إن النساء كثيرات ولا تختلف واحدة منهن عن الأخرى .. لو وجد أى فارق لتزوج منذ سنوات ..

فجأة يظهر ذلك الرجل القصير المنفر من زقاق جانبى ويسألهم بالإنجليزية :

ـ « هل يرغب السادة فى قضاء الأمسية ؟ ملكة جمال جنوب إفريقيا شخصيًا .. يمكنكم مقابلتها والرقص معها .. »

تبادل الفتية النظرات .. كانوا قد جابوا العالم فقابلوا هذا الرجل فى كل ركن من الأرض .. ملكة جمال (تايوان) .. (ناميبيا) .. (طوكيو) .. (أمستردام) .. نفس الملامح الخسيسة واللهجة التى تشى بالنصب ..

قال (أشرف) وقد بدا عليه سمت من يريد التسلية :

ـ « دعنا نرى ملكة الجمال هذه .. »

هتف (محمود) :

ـ « كف عن هذا .. ما زلت مراهقًا .. أنت تعرف أنه قواد .. ليس هذا فحسب بل هو نصاب كذلك .. »

قال (أشرف) ، فى إلحاح :

ـ « فلنر .. ملكة جمال (تايوان) كانت أقرب إلى قرد يضع شعرًا مستعارًا .. لا بد أن هذه توفيت منذ عشر سنوات .. سوف نمرح كثيرًا .. »

هكذا مشى الشبان الثلاثة وراء الرجل إلى داخل الزقاق المظلم .. ولم يتأخروا كثيرًا حتى يدركوا أن هذا كمين .. هناك أربعة رجال يقفون بالداخل وفى أيديهم هراوات أو مدى .. وحين نظروا للوراء رأوا أن الدائرة انغلقت ..

ـ « ساعات .. هواتف .. مال .. أى شىء .. »

لكن الاختيار كان خاطئًا هذه المرة ؛ لأن الفتية الثلاثة لا يفتقرون إلى القوة .. وهم ضباط جيش ويجيدون فنون

القتال اليابانية .. دعك من أن أحدهم مسلح .. النصيحة التى يجب ألا تنساها لو قررت أن تكون قاطع طريق هى : الثياب المدنية لا تدل على ضعف صاحبها ومسالمته ..

هكذا ما إن اعتادت عيونهم الظلام حتى انقض الثلاثة على مهاجميهم .. وبيد خبيرة تمكن (محمود) من ثنى معصم مهاجمه وانتزاع المدية من يده ، قبل أن يهوى على مؤخرة عنقه بسيف يد .. أما (عماد) فانطلق بوجه الركلات فى الظلام .. قبل أن يمد يده فى جيبه ويخرج مسدسه .. ويصيح بالإنجليزية :

ـ « مكانك !! »

ربما لم يصل النداء بهذه السرعة فصوب المسدس للسماء وأطلق طلقة واحدة بليغة جدًا .. كانت هذه هى الإشارة كى يفر الرجل القصير المنفر بسرعة الريح .. لكن أمر هذا لم يعد مهمًا على الإطلاق ..

فى ذات اللحظة كان (أشرف) سبب المشكلة يكفر عن خطاياه .. لقد حطم أنف اثنين من الفتية ..

وهكذا جاءت الدقيقة التالية لترى الفتية السود وقد تفرق شملهم بين ملقى على الأرض أو من ينظر إلى المسدس فى هلع ..

نظر (عماد) إلى (محمود) وهو يصوب المسدس على السود ، وقال :

ـ « إنهم من الزولو .. هذا واضح .. استدع الشرطة بينما أبقيهم أنا هنا .. »

فتية المنصورة الثلاثة أثبتوا أنهم ليسوا سهلى الهضم إلى هذا الحد .. .

★ ★ ★

سوف ألقاكم غدًا لأستكمل القصة .. سوف تكون الليلة الأخيرة هذه المرة .. فلا تتخلفوا عنها .

★ ★ ★

الليلة الثانية عشرة

مرحبًا بكم ..

كان (علاء) يجلس فى المكتب الموجود فى العنبر يراجع بعض تذاكر المرضى .. عين على التذاكر وعين على الغزال الرشيق الذى يتنقل كالطيف بين أسرة المرضى .. ما هذا السخف الذى تورط فيه ؟؟؟ كيف خسرها بهذه السهولة لمجرد أن هناك من ضرب (بوثليزى) ؟ هل هى مسئولة عن سلامة الرجل ؟ لقد بنى جبلاً من الأوهام وهو ذا قد خسرها تمامًا ..

فجأة ! دق جرس الهاتف فرفع السماعة ..

جاءه صوت عامل التحويل يطلب منه أن ينتظر .. ثم دوت مقطوعة موسيقية من مقطوعات (صندوق الدمى) المملة تلك ..

بعدها اندلع كالسيل صوت يقول بالعربية :

- « د. (علاء) .. هل هذا أنت ؟ »

- « من ؟ »

- « (محمود) .. (محمود لطفى) .. . هل نسيت ؟ »

انتفض (علاء) وقد تذكر الصوت ..

- « ألم تسافر بعد ؟ »

- « سوف نتحرك إلى (وندوك Windhok) فجر الثلاثاء .. لقد أتعبنى هذا الرقم الذى أعطيته لى .. أنا فى (ديربان) الآن .. هناك شىء طريف حدث لى ورفاقى أمس .. يشبه ما حدث لك . »

وحكى له محاولة الاعتداء تلك .. فقال (علاء) ، وقد استعاد ذكريات كئيبة :

- « كان عليكم أن تكونوا حذرين .. »

- « (عمر الشقى بقى) .. المهم أن هؤلاء القوم تكلموا فى المخفر .. عددهم سبعة .. إخوة من إحدى قرى الزولو شديدة الفقر سيئة السمعة .. قرية تقع قرب (توجيلا فيرى) .. لقد اعتادوا التربص بالغرباء .. لكن نهايتهم جاءت على أيدينا .. ألم أقل لك إن أصغر شاب فى المنصورة يفطر بعشرة منكم معشر (الشبراوية) ؟ »

- « كان العدد خمسة .. يبدو أنك مصاب بحالة غلاء مستمرة .. »

عاد الفتى يقول بمرح :

- « المهم .. اعترفوا بجرائم كثيرة .. آخرها الاعتداء بالضرب على ممرض فى الوحدة التى تعمل فيها .. قالوا لفظة (سافارى) فتذكرتك على الفور .. من الغريب أن شقيقتهم ممرضة فى ذات الوحدة التى تعمل فيها أنت ! كانت تجوب شوارع (ديربان) لاختيار الضحية الثرية المناسبة .. أحيانًا كانت تستدرج الضحية بنفسها .. خذ الحذر .. يبدو أنك تعمل وسط تنظيم عصابى محكم .. لهذا اتصلت بك .. »

كان يتكلم لكن (علاء) لا يسمع حرفًا ..

فقط يراقب الغزال الإفريقى الذى خرج من الدغل يجوب العنبر يوزع الرحمة على كل فراش ..

ولا يعرف متى انتهت المكالمة ..

ولا متى وضع السماعة ..

★ ★ ★

دون أن يرفع عينه عن التذاكر ، قال لها بصوت خفيض :

- « لقد قبضوا على إخوتك ! »

نظرت له فى ذعر ولم تفهم ..

العقد الذى أهداه لها غاف على صدرها .. ما زال يغفو غير عالم بما يحدث ..

- « لكنى لست .. »

- « لقد انتهت المزحة .. أعتقد أن الشرطة ستقبض عليك حالاً .. لقد أجدت إخفاء كل هذه التفاصيل .. لم تكونى تلك الحرباء فى الأساطير بل كنت حرباء حقيقية .. لكنى لا أفهم لماذا قمت بإنقاذى .. »

نظرت له طويلاً .. ساد صمت رهيب ..

سوف تتكلم ..

هذه هى اللحظة ..

جلست كالمنومة ، وقالت كأنها تحلم :

- « الفقر .. الفقر هو اسم اللعبة .. نحن فقراء جدًا والزولو لا يحملون لنا ودًا مفقودًا .. يتهموننا بأننا سحرة ولصوص .. ثم هذا الاسم الكريه الذى أحمله والذى زاد الطين بلة .. لكنى صممت على أن أتعلم .. صرت ممرضة ، لكن هذا لم يحل إلا مشكلتى أنا .. كان على أن أساعد أسرتى .. جرب إخوتى هذه الطريقة فى استدراج السياح فوجدوها ناجحة ، وأقنعونى بأن أعمل معهم فى أوقات فراغى .. فى ذلك اليوم لم يكن لى دخل بالموضوع .. أقسم لك .. لقد ظفروا بك .. كنت قريبة حسب دورى فى العمليات فوجدتك تزحف خارجًا من الزقاق .. كنت أحمل لك كل احترام وتقدير ، ولم أتحمل أن يحدث هذا لك أنت بالذات .. لذا فعلت كل شىء ممكن حتى أنقذك .. تبرعت لك بدمى .. كل ما فعلته من أجلك كان اعتذارًا عما فعلناه بك .. وعندما دعوتك لقريتى كنت أعرف أنك لن تتذكر أى وجه .. طلبت من إخوتى أن يبهروك .. يروك الجانب الأسطورى البطولى للزولو بعدما أروك الجانب المظلم لهم .. تذكر يا (علاء) .. كنت متأخرة دائمًا عن كل موعد وهو ما أساء إلىّ ، لأنه ألصق بى تهمة الحرباء .. لكن هناك موعدًا واحدًا فقط لم أتأخر عنه .. موعدك .. كنت هناك فى الموعد المناسب كى أنقذ حياتك »

قال ، وهو يرتجف انفعالاً :

- « كنت تكذبين وتركتينى أتعلق بك »

- « لو لاحظت لوجدت أننى لم أعرض الزواج ولم أحاول دفعك إليه .. أنت طلبت وأنا تجنبت الإجابة .. صدقنى .. ما كنت لأخدعك أنت بالذات .. »

- « وهذا البائس (بوثليزى) .. »

- « ليس بائسًا .. لم يكن قط .. لا عمل له إلا تشويه سمعتى واتهامى بأننى حرباء آدمية .. لقد أخبرت إخوتى بما كان منه فقرروا أن يؤدبوه .. إنه من قرية تناصب قريتنا العداء منذ ربع قرن .. هو لم يمت ولن يموت .. لا يستحق هذا الكرم .. لقد حرص إخوتى على أن يتعذب فقط .. لكنه قاومهم بعنف فحدث ذلك الكسر فى الجمجمة ولسوف ينجو منه »

ثم قالت ، وهى تنهض :

- « فقط تذكر .. ليس الزولو جميعًا مثلنا .. الزولو أشجع وأنبل محاربى القارة .. فلا تغير فكرتك عنهم .. هذا يهمنى بحق .. »

وتوقفت على الباب ، وقالت :

ـ « تذكر كذلك .. هناك موعد واحد فقط لم أتأخر عنه .. موعدك .. والسبب هو أننى ... »

ونظرت للأرض وهمست بكلمة ما لم يتبينها ..

مدت يدها إلى عنقها ونزعت العقد .. وبحركة رشيقة ألقت به على المكتب أمامه ..

ثم رفعت رأسها ، وهتفت :

ـ « صالاداشى ! »

ولم يرها قط ولم ترها الوحدة بعد هذه المحادثة .. .

★ ★ ★

كان يرتجف وهو يشق طريقه بين الأطباء ..

(مكفادين) يناديه وقد ازداد وجهه الأحمر احمرارًا :

ـ « (علاء) .. لا تترك العنبر .. نحن نريدك فى ... »

لكنه يتركه ويشق طريقه .. يصطدم بنائبة المدير (فان بيردن) ..

تقول له فى حزم :

ـ « ماذا تفعل هنا الآن ؟ ليس هذا وقت الجولات يا دكتور .. فلتعد إلى .. »

لكنه يزيحها ويواصل المشى وهو يرتجف ..

المدير الأسود يسأله متلطفًا :

ـ « هل تناسبك الحياة فى وحدتنا هذه ؟ إننا ... »

لكنه يتركه ويواصل طريقه ..

عند كابينــة الهاتف يقف .. بيد ترتعش يدس العملات وينتظر حتى تأتى الحرارة .. يطلب الرقم الطويل ..

صوت (برنادت) يتكلم من الطرف الآخر :

ـ « (علاء) .. هل أنت بخير ؟.؟؟ (علاء) .. لم لا ترد ؟ »

لكنه لا يردّ فعلاً ..

إنه يحتضن سماعة الهاتف ويبكى كطفل ..

طفل تخلت عنه أمه ..

★ ★ ★

مرحبًا بكم من جديد ..

أنا (كوتانجا) الذى تعرفونه باسم (مزى) ..

ليس من بينكم إلا من يعرفنى ويحب قصصى ..

(مزى) .. الرجل العجوز الحكيم بلغة السواحلية ، الـذى يملك زادًا لا ينفـد من القصص .. من أجل هذه القصص تصبرون يومًا بأكمله على الفقر .. على السغب .. على القيظ .. على تقلبات السياسة ، لأنكم تعرفـون يا أهل (مومباسا) أنه عندما يأتى المساء سيكون (مزى) جالسًا على جذع السنديانة المقطوع وهو يمضغ التبغ ويحكى ..

هلموا يا أبناء الشمس .. اليوم يحكى لكم (مزى) قصـة أخرى ..

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حياً ولكى يظل طبيباً

زولو

كانوا نموذجًا للقوة والعنفوان .. أجسامهم الصلبة السوداء مبللة بالعرق فى ضوء اللهب ، بينما المنشدون يرددون :

- «عار على الجبان الذى يظل فى كوخه حتى يحترق .. اخرج وقاتل .. هيه هيه ى ى ى ى ى ى !»

تقول له (أونوابا) :

- «إنهم أشرس المقاتلين طراً .. لا تكسب عداوتهم أبداً .. كن صديقهم يعطوك كل شىء»



د. أحمد خالد توفيق

الرواية القادمة

حكايات من الناتال

الثمن فى مصر ٢٥٠

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية
٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية الرقم البريدى ١١٣٨١
ت. ٢٠٢-٥٩٢٨٢٠٢-٦٨٣٥٥٥٤-٢٥٨٦١٩٧

